أجاثا كريستي

مؤامرة في بغداد

دار النجمة للنشر والتوزيع

مؤامرة في بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

مؤامرة في بغداد

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

غادر الكابتن كروسبي مبنى البنك وعلى وجهه من دلائل الارتياح مثل ما يبدو على وجه رجل صرف لتوه شيكاً بمبلغ كبير ثم اكتشف أن له رصيداً أكبر مما يظن. كان قصير القامة أحمر الوجه، مشوش الشاربين عسكري المظهر، يؤثر الثياب ذات اللون الصارخ ويحب النكتة الطريفة، ولكنه كان إلى جانب ذلك إنساناً مهاباً ومحبوباً.

سار الكابتن كروسبي في شارع اسمه «شارع البنوك» لأنه يضم أكثر المؤسسات المصرفية في بغداد، وأحس على الفور بالفارق بين الجو داخل البنك وخارجه. ففي البنك كان الهواء مكيفاً والنور هادئاً والسكون شاملاً فيما عدا الآلات الكاتبة، أما الشارع فكان يسبح في أشعة الشمس المحرقة ويعج بالمارة، وقد امتلأ الجو بالأتربة والغبار واختلط فيه ضجيج السيارات بصياح الباعة المتجولين رجالاً ونساء وأطفالاً وهم يعرضون على المارة بضائعهم من حلوى وبرتقال وموز وشفرات للحلاقة. كان الزحام شديداً والشارع غاصاً بالسيارات والعربات والحمير والمشاة، فراح الكابتن كروسبي يشق طريقه وسط الزحام، ثم توقف لحظة ليبتاع جريدة من

أحد باعة الصحف، ثم انحدر في شارع الرشيد، وهو الشارع الرئيسي الذي يشق المدينة بمحاذاة نهر دجلة على مدى أربعة أميال. وفي الطريق تمهل الكابتن كروسبي في سيره قليلاً ليتصفح الجريدة ثم واصل سيره، وبعد أن اجتاز مئة متر انحرف يميناً وسار في زقاق ضيق يؤدي إلى فناء واسع، حتى انتهى إلى باب في هذا الفناء عليه لافتة نحاسية، ففتح الباب ودخل فوجد نفسه في غرفة أعدت لتكون مكتباً.

وقف لاستقباله شاب عراقي كان يكتب على الآلة الكاتبة وقال وعلى شفتيه ابتسامة ترحيب: طاب صباحك يا كابتن، هل من خدمة أؤديها لك؟

- هل السيد داكن في مكتبه؟ حسناً، أعرف الطريق.

وفتح باباً وارتقى درجاً ومشى في دهليز طويل يحتاج إلى النظافة، وطرق باباً في نهاية الدهليز فسمع صوتاً من الداخل يقول: ادخل.

دخل الكابتن كروسبي غرفة فسيحة ليس بها من الأثاث سوى مكتب ضخم وأريكة كبيرة ومائدة عليها موقد وآنية مليئة بالماء. كان يجلس أمام المكتب رجل مهدل الثياب يبدو كإنسان يائس أتلف حياته واستسلم لمصيره، وتبادل الرجلان التحية. ثم قال داكن: هل عدت من كركوك؟

أومأ كروسبي برأسه علامة الإيجاب، ثم انثنى إلى الباب فأغلقه بعناية، وعندما عاد بدا أكثر تواضعاً وأقل ثقة بنفسه مما كان عندما دخل بينما اعتدل داكن في جلسته وبدا أكثر أهمية

من زائره. قال كروسبي: هل من جديد يا سيدي؟

- نعم.

كانت بين يدي داكن حين دخل عليه كروسبي رسالة بالشفرة يعالج حل رموزها، وما أن فرغ من ذلك حتى قال: سيعقد الاجتماع في بغداد.

وأشعل عود ثقاب فأحرق الورقة التي سجل عليها ترجمة الرسالة، حتى إذا تحولت إلى رماد فركها بإصبعه قائلاً: لقد وقع اختيارهم على بغداد في النهاية وتقرر أن يعقد الاجتماع في العشرين من الشهر القادم. من واجبنا أن نعمل على أن يظل مكان الاجتماع وموعده سراً لا يعلم به أحد.

- إن الناس يتناقلون في الشوارع هذا السر منذ ثلاثة أيام.

فابتسم داكن وقال: هذا صحيح، فالأسرار في بلاد الشرق ملك للجميع. ألا ترى ذلك أيضاً يا كروسبي؟

- نعم يا سيدي، بل وأستطيع أن أضيف أن الأسرار لا وجود لها في الشرق أو في غيره، وقد تبينت خلال الحرب أن صبي الحلاق في لندن يعرف من الأسرار أكثر مما تعرف القيادة العامة.

- على كل حال، إذا كان المؤتمر سيعقد في بغداد فلا بد من أن يعلم الناس بأمره قريباً.

- وهل تعتقد أنه سينجح يا سيدي؟

- إذا كان الغرض من المؤتمر هو استعراض العضلات

ومناقشة المبادئ والأيديولوجيات فمن المؤكد أنه سيفشل وسينتهي كغيره من المؤتمرات في جو من الريب والشكوك، لكني أعتقد أن هذا المؤتمر سوف يختلف عن سابقيه بسبب ظهور عنصر طارئ، ولو صحت القصة المذهلة التي رآها كارمايكل...

وكف عن الكلام فهتف كروسبي: لا يمكن أن تكون القصة صحيحة، أنت نفسك وصفتها بأنها مذهلة.

صمت داكن ومرت بذهنه ذكريات لا يمكن لمثله أن ينساها. تذكر تعقيبه هو حين قال: إما أن يكون أفضل جواسيسي قد أصابه مس من الجنون أو يكون قد قال الصدق، وفي هذه الحالة...

توقف داكن عن الكلام متأملاً ثم استطرد يقول: كانت جميع القرائن تؤيد صدق رواية كارمايكل، ولذلك انطلق للبحث عن الأدلة التي تؤيد كلامه. ولا أدري هل أخطأت أم أصبت حين سمحت له بالرحيل، ولكنه إذا عاد إلى بغداد في اليوم العشرين من الشهر القادم وأعاد رواية قصته وقدم الأدلة...

- الأدلة؟

- نعم، الأدلة. لقد حصل عليها.

- وكيف علمت؟

- لقد حمل إليّ صلاح حسن الرسالة المتفق عليها بيني وبين كارمايكل، والرسالة هي «اجتاز الجمل ممر خيبر».

وصمت داكن لحظة ثم تابع قائلاً: إن معنى هذه الرسالة أنه نجح في مهمته وحصل على الأدلة، ولكن أولئك الذين يعنيهم الأمر ويهمهم ألا ينجح كارمايكل في إقامة الدليل قد علموا بأمر رحيله ومن المؤكد أنهم يجدّون الآن في أثره ليمنعوه من العودة. سوف يكمنون له في الطريق، فإذا عجزوا عن الإيقاع به ترصدوه هنا في بغداد وضربوا سياجاً حول جميع السفارات والقنصليات للفتك به إذا حاول الاتصال بها، انظر.

تناول عدداً من الصحف المبعثرة فوق مكتبه وراح يقرأ عناوين بعض أنبائها: "اغتيال رجل إنجليزي كان في رحلة بالسيارة من إيران إلى العراق"، "مصرع تاجر كردي في كمين بالجبل"، "أحد جنود الحدود يقتل كردياً يدعى عبد الله حسان يقال إنه يشتغل بالتهريب"، "العثور في طريق رواندوز على جثة لشخص مجهول ثبت فيما بعد أنها جثة لسائق سيارة أرمني"... وما يلفت النظر أن أوصاف جميع الضحايا في هذه الحوادث تنطبق على أوصاف كارمايكل. إنهم يريدون تدميره ولا يتورعون عن تدمير أي شخص يرتابون في أن يكون كارمايكل، ومتى وصل كارمايكل إلى العراق فإن الخطر عليه سيكون أشد، وسوف يتعين عليه أن يحذر جميع الناس، من موظفي المطار والجمارك إلى خدم القنصليات والفنادق، لأن الحلقة ستضيق حوله وسيحاصر من كل جانب.

قال كروسبي في دهشة: أتعتقد ذلك حقاً يا سيدي؟

- نعم، والأدهى من ذلك أن بعض أسرارنا نحن قد تسربت حتى أصبحت أشك في جدوى الإجراءات التي

اتخذناها لحماية كارمايكل عند عودته إلى العراق. ما يدرينا أن هذه الإجراءات لم تتسرب إلى العدو؟ وما يدرينا أنه لا يوجد في منظمتنا من يعمل لحساب آخرين؟

- هل ترتاب في شخص بعينه؟

هز داكن رأسه سلباً وظهرت دلائل الارتياح على وجه كروسبي وقال: هل رأيك أن نمضي في طريقنا؟

- نعم.

- هل توجد أنباء عن كروفتون لي؟

- سيحضر إلى بغداد.

وانصرف كروسبي وظل داكن جالساً أمام مكتبه وغمغم قائلاً بصوت خافت: إلى اللقاء في بغداد!

ثم تناول قلماً ورسم دائرة على ورقة أمامه وكتب في وسط الدائرة كلمة «بغداد»، ثم رسم صورة جمل وطائرة وباخرة وقطار وجميعها تتجه نحو الدائرة، ثم رسم في ركن الورقة صورة نسيج عنكبوت وكتب تحت هذا الاسم: «هيلين شيل»، ثم رسم تحت هذا كله علامة استفهام كبيرة، وبعد لحظة تناول قبعته وغادر مكتبه.

في شارع الرشيد مر برجلين نظرا إليه بعد أن ابتعد عنهما وقال أحدهما: من هذا الرجل؟

فأجابه الآخر: إنه السيد داكن، وهو يعمل في إحدى شركات البترول. رجل طيب ولكنه كسول، ولا أعلم إذا كان

يسرف في الشراب كما يقول البعض، ولكني واثق من أنه لا ولن يصلح لشيء.

* * *

- هل لديك التقرير الخاص بأملاك كروجنهوف يا آنسة شيل؟

- نعم يا سيد مورجنتال.

وقدمت هيلين شيل التقرير إلى رئيسها فقال: أظن أنه مقتنع.

- أعتقد ذلك يا سيد مورجنتال.

- هل جاء شواترز؟

- إنه في قاعة الانتظار.

- فليبعثوا به إليّ إذن.

ضغطت هيلين شيل أحد الأزرار ثم قالت: هل أنت بحاجة إليّ يا سيد مورجنتال؟

- لا.

فانصرفت هيلين شيل في هدوء. كانت شقراء بلاتينية الشعر لها عينان زرقاوان شاحبتان تتألقان وراء نظارة سميكة ووجه دقيق القسمات ولكنه جامد لا يعبر عن شيء. صفوة القول أنها لم تكن من الطراز الذي يفتن الرجال، وإذا كانت قد احتلت في عملها مركزاً مرموقاً فالفضل في ذلك لمواهبها

لا لجمالها وجاذبيتها. وكان أبرز مواهبها قوة ذاكرتها، فهي لا تنسى اسماً أو رقماً ولا تحتاج إلى تسجيل تاريخ أو موعد، وكانت فضلاً عن ذلك سريعة الخاطر ونشيطة ومطيعة.

كان أوتو مورجنتال، مدير عام بنك مورجنتال وبراون وشييراك، يعلم جيداً أن خدمات هيلين شيل لا تقوم بالمال. كان راتبها ضخماً ولكنه كان على استعداد لأن يمنحها أية علاوة تطلبها، فلم تكن هيلين شيل تعرف كل صغيرة وكبيرة عن أعماله فحسب، وإنما كانت كذلك تعرف كل شيء عن حياته الخاصة، وقد استطلع رأيها في زوجته الثانية فنصحته بطلاقها، بل وذكرت له بالتحديد المبلغ الذي سوف تقره المحكمة كنفقة لها. فعلت ذلك دون أن تبدي شفقة أو فضولاً، ولم يدهش مورجنتال فقد كان يعلم أنها نسيج وحدها وأنها لا تعرف شيئاً من الأحاسيس التي تعتمل في نفوس الناس، فهي مجرد عقل جبار يعمل لمصلحة البنك بصفة عامة ومصلحته هو شخصياً بصفة خاصة.

لذلك دهش السيد مورجنتال أشد الدهشة حين قالت له هيلين وهو يهم بمغادرة المكتب إنها تريد إجازة لمدة ثلاثة أسابيع اعتباراً من يوم الثلاثاء القادم، ولم يجد بداً من القول لها إنه يتعذر عليه إجابتها إلى ما تطلب، ولكنها أجابت في هدوء: لا أظن ذلك يا سيد مورجنتال. الآنسة ويجات ستحل محلي وسأترك لها مذكراتي وأصدر إليها التعليمات اللازمة.

- هل تطلبين الإجازة لأنك مريضة يا آنسة شيل؟

كان يعلم أنه سؤال سخيف، فهيلين لا يمكن أن تمرض.

إن الجراثيم نفسها تحترمها. أجابت: كلا يا سيد مورجنتال، ولكنني أريد السفر إلى لندن لزيارة أختي.

- لزيارة أختك؟ هل لك أخت؟

لم يكن يعرف أن لها أختاً، ولم تحدثه هيلين عن هذه الأخت حتى عندما رافقته إلى لندن في الخريف الماضي. أجابت وهي تبتسم: نعم يا سيد مورجنتال، وهي متزوجة برجل إنجليزي في المتحف البريطاني، وستجرى لها عملية جراحية خطيرة ويجب أن أكون على مقربة منها.

أدرك الرجل من لهجتها أن لا شيء يمكن أن يثنيها عن رغبتها في الرحيل فقال: ما دام الأمر كذلك فليس في استطاعتي أن أستبقيك، وكل ما أرجوه هو أن تعودي بسرعة، فالسوق المالية مضطربة إلى أقصى حد بسبب توتر العلاقات بين المعسكرين الشرقي والغربي حتى ليُخشى أن تنشب الحرب في أية لحظة، والواقع أنني أتصور أحياناً أن نشوب الحرب قد يكون هو الحل الوحيد. إن أعصاب الناس تكاد تتمزق وها هم يقولون إن مؤتمر قمة سيعقد في بغداد قريباً. ألا يعلم الرئيس الأمريكي أنه قد يذهب ضحية اعتداء في بغداد؟

- ستكون هناك حراسة قوية وإجراءات أمن مشددة؟

- ومتى كانت إجراءات الأمن حائلاً دون اغتيال الساسة والزعماء؟ إن سفر الرئيس الأمريكي إلى بغداد هو الجنون بعينه! ثم تنهد واستطرد قائلاً: صحيح أننا نعيش في عالم مجنون... مجنون!

* * *

الفصل الثاني

جلست فكتوريا جونز على أحد مقاعد حديقة غيتز جيمس في لندن وراحت تستعرض ذكرياتها وامتلأ قلبها حزناً. أحزنها بصفة خاصة أن تلمس بنفسها مدى ما يمكن أن يتعرض له الإنسان من متاعب إذا حاول إبراز مواهبه في وقت غير مناسب. كان لفكتوريا كما لجميع الناس فضائلها وعيوبها، فمن فضائلها أنها طيبة القلب ونشيطة في عملها، شغوفة بالمغامرة، وقد تكون هذه الخصلة الأخيرة فضيلة ولكنها كذلك قد تكون عيباً، خاصة إذا كانت الظروف تحتم على الإنسان الحكيم ألا يجازف بشيء محقق من أجل شيء مشكوك فيه.

على أن أبرز عيوبها كان حبها للكذب. فهي تكذب بكل سهولة وبساطة سواء استفادت من الكذب أو لم تستفد، فإذا حدث مثلاً أنها تأخرت عن موعد فإنها لا تقنع بأن تزعم أن ساعتها أصابها خلل أو أنها انتظرت الحافلة وقتاً طويلاً دون جدوى، وإنما تخترع قصة تشط فيها مع خيالها الخصب فتزعم مثلاً أن فيلاً هرب من السيرك وعطل حركة المرور، أو أن عصابة مسلحة هاجمت متجراً تحت سمعها وبصرها وأنها

كانت شخصياً قد لعبت دوراً بارزاً في مساعدة الشرطة على اعتقال أفراد العصابة...

كانت فارعة الطول ممشوقة القوام لها وجه تتحرك عضلاته بسهولة ويسر مما يساعدها على محاكاة الآخرين وتقليدهم ببراعة عجيبة، وقد كانت هذه الموهبة علة متاعبها الحالية. كانت تعمل كاتبة اختزال في متجر جرينهولز وسيمونز بشارع جريهولم، وقد أرادت في صباح ذلك اليوم أن تسري عن زملائها وزميلاتها في المكتب، فلم تجد أفضل من تقليد زوجة جرينهولز حين تأتي لزيارة زوجها في مكتبه. كانت فكتوريا تعلم أن السيد جرينهولز قد ذهب لمقابلة محاميه ولن يحضر قبل ساعة على الأقل، فانطلقت تحاكي زوجته وتقلد حركاتها وصوتها ولكنتها الأجنبية التي لم تستطع التخلص منها رغم طول إقامتها في لندن.

راحت تقول: ألا تريد أن تبتاع لي تلك الأريكة؟ إن لدى السيدة ديفتاكس أريكة مثلها. لا تزعم أنه ليست لديك نقود، إنك تجد النقود بسهولة لكي ترافق تلك الشقراء إلى المطاعم والمسارح. هل تظن أنني لا أعلم أنك تعود كل ليلة وعلى وجهك آثار أحمر الشفاه؟ إنني أتركك مع شقرائك ولكنني أريد الأريكة، اتفقنا إذن. ولا تنسَ معطف الفراء الذي حدثتك عنه! إنه ليس من الفراء الجيد على كل حال ولكنه من حيث الثمن فرصة لا تعوض.

عندما وصلت فكتوريا في محاكاة الزوجة إلى هذا الحد لاحظت أن زملاءها لا يصغون إليها وأنهم قد كفوا عن

الضحك وانصرفوا إلى العمل بهمة ونشاط، فاستولى عليها القلق ونظرت حولها لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام السيد جرينهولز. كان الرجل يتأملها في صمت، فأفلتت من فمها آهة خافتة ولم تجد ما تقوله، أما الرجل فإنه مضى إلى مكتبه دون أن ينطق بكلمة. ودق الجرس على الفور فأسرعت إليه والقلم والورق في يدها لكي تسجل تعليماته وسألته متظاهرة بالبراءة: هل دعوتني يا سيد جرينهولز؟

وضع الرجل على مكتبه ثلاث ورقات من فئة الجنيه وقال: أظن يا بنيتي الجميلة أنني قد رأيت ما فيه الكفاية وأنه ليس لديك مانع من تسلم أجر أسبوع والرحيل عنا دون إبطاء.

همت فكتوريا بأن تخترع قصة تبرر بها سلوكها، ولكن النظرة التي رأتها في عيني جرينهولز أقنعتها بعدم جدوى أية محاولة في هذا السبيل، فعدلت عن محاولتها وقالت له وهي تبتسم أنها تعتقد أنه على حق. دهش جرينهولز، فهو لم ير من قبل موظفاً يتلقى نبأ فصله بمثل هذه البساطة، وحاول أن يخفي دهشته بالبحث في جيوبه عن بقية نقود. قال: لا زلت مديناً لك بتسعة بنسات.

فأجابت بلطف: لا بأس يا سيد جرينهولز، تقبّلها هدية مني إليك.

- سوف أبعث بها إليك.

- لا ضرورة لذلك، إن ما يهمني هو الحصول على شهادة.

فقطب جرينهولز حاجبيه وقال مردداً: شهادة؟

- نعم.

فكتب جرينهولز بضعة سطور على ورقة تحمل اسم الشركة وقدمها إليها فقرأت فيها ما يلي:

أشهد أن الآنسة فكتوريا جونز عملت في مكتبي مدة شهرين بصفة كاتبة اختزال وأنها تعرف الاختزال وتجهل الكتابة، وقد فصلت من العمل لأننا لا نستطيع الاحتفاظ بموظفة لا تؤدي أي عمل على الإطلاق.

قرأت فيكتوريا هذه الكلمات وقلبت شفتها وقالت في هدوء: يخيل إليّ أن خطابات التوصية تكتب بأسلوب غير هذا.

- لكني لم أقصد بهذه السطور أن تكون كتاب توصية.

- كان يجب على الأقل أن تقول إنني أمينة، وهذه حقيقة كما تعلم، وحبذا لو أضفت كذلك أنني أكتم الأسرار.

- تكتمين الأسرار؟

فقابلت نظرته بجرأة ولم يهتز لها هدب وقالت بصوت رقيق: نعم، أكتم الأسرار.

فتذكر جرينهولز الرسائل المختلفة التي سبق أن أملاها على فكتوريا ورأى من الحكمة أن يرضخ، فتناول الشهادة وكتب لها شهادة أخرى قال فيها:

أشهد أن الآنسة فكتوريا جونز عملت عندي ككاتبة اختزال مدة شهرين، وقد اضطرتنا ظروف العمل إلى ضغط عدد من الموظفين والاستغناء عن خدماتها.

وقدم لها الشهادة وهو يقول: ما قولك في هذه الصيغة؟

فقرأت فكتوريا الشهادة وهزت كتفيها وقالت: ليست رائعة ولكني سأقنع بها.

* * *

استعرضت فكتوريا ظروف فصلها واقتنعت بأنها مؤسفة، ولكنها رفضت الاعتراف بأن فصلها كارثة. لقد تخلصت من جرينهولز وشركته وهذا أمر له قيمته، وليس ثمة ما يوحي بأن العمل الجديد الذي سوف تحصل عليه لن يكون أفضل من العمل من جرينهولز. حاولت أن تتناسى الموضوع وأخرجت من حقيبتها شطيرتين كانت قد أعدتهما لغدائها، وما أن أتت عليهما حتى رأت شاباً يقترب منها ويجلس على الطرف الآخر للمقعد الخشبي الذي كانت تجلس عليه. نظرت إليه من ركن عينها ووجدته وسيماً. كان أشقر الشعر أزرق العينين له فك بارز يدل على قوة الإرادة. لم تكن فكتوريا تضيق بحديث الغرباء الذين تلتقي بهم في الأماكن العامة. كانت تعلم أن في استطاعتها أن توقفهم عند حدهم عند الضرورة، وكانت ابتسامة رقيقة منها كافية لتشجيع الشاب على التحدث إليها.

قال: طاب مساؤك يا آنسة، إنه يوم جميل، هل تأتين هنا دائماً؟

- كل يوم تقريباً.

- هذه أول مرة آتي فيها إلى هذه الحديقة. حقاً إنني سيئ الحظ. هل هذا الذي تتناولينه هو طعام غذائك؟

- نعم.

- إذن دعيني أقل لك إنك لا تتناولين طعاماً كافياً، ولو أنني حذوت حذوك لمتّ جوعاً. ما قولك في أن نتناول الغداء في شارع توتنهام؟ إنني أعرف هناك مطعماً صغيراً.

فقاطعته: كلا شكراً لك، حسبي ما تناولت. أنا لا أشعر الآن بالجوع.

وكانت تتوقع أن يقول لها: إذن فلنتناول الطعام معاً في يوم آخر، ولكنه لم يفعل وإنما قال: أنا أدعى إدوارد، وأنت؟

- فكتوريا.

- كاسم محطة فكتوريا؟

- بل كاسم الملكة فكتوريا.

- واسم الأسرة؟

- جونز؟

- إذن اسمك فكتوريا جونز. وكرر الاسم مرتين ثم قلب شفته وقال: الاسمان غير متلائمين.

فقالت فكتوريا في حماسة: وهذا رأيي أيضاً، كان أفضل أن يكون اسمي جيني جونز أو أن يكون اللقب مركباً مثل ساكفيل ويست، أليس كذلك؟

- جربي لقباً آخر مثل بدفورد جونز، أو كريسبروك جونز، أو سان كلير جونز.

وكان ممكن أن تستمر اللعبة أطول من ذلك لولا أن الشاب نظر إلى ساعته وهتف قائلاً: يجب أن أذهب لمقابلة رئيسي المحبوب، وأنت؟

- أنا عاطلة عن العمل، لقد فصلت اليوم من عملي.

فقال الشاب بإخلاص: أنا آسف.

- أما أنا فغير آسفة. أولاً لأنني سرعان ما سأجد عملاً، وثانياً لأنني ضحكت كثيراً قبل أن أفصل.

وروت له قصة فصلها وقلدت السيدة جرينهولز فأغرق إدوارد بالضحك، ولما فرغت من قصتها قال لها إن مما يؤسف له أنها لم تشتغل بالتمثيل، ورحبت فكتوريا بهذا الإطراء ثم ذكرته بموعده مع رئيسه وحذرته من التأخير حتى لا يفقد وظيفته ويصبح عاطلاً مثلها، فقال: صدقت، خاصة وأنني لن أجد عملاً آخر بسهولة مثلك. ثم استطرد قائلاً بعد لحظة: جميل أن يعرف الإنسان الاختزال ويجيده.

- الواقع أنني لا أجيد الاختزال، ولكن من حسن الحظ أن كاتبات الاختزال حتى الضعيفات منهن يجدن دائماً عملاً بأجر لا بأس به. وأنت ماذا تعمل؟ أراهن أنك اشتركت في الحرب وعملت في سلاح الطيران.

- هذا صحيح.

- هل كنت قائد إحدى طائرات المطاردة؟

- تماماً، وقد وجدوا لي عملاً بعد الحرب ولكنهم لم

يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما إذا كنت أصلح لهذا العمل أم لا. إن قيادة الطائرات تحتاج إلى ذكاء مفرط، ولكني الآن تائه بين الملفات والأرقام، وقد اكتشفت في النهاية أنني لا أكاد أصلح لشيء. لكن دعينا من ذلك الآن، هل تسمحين لي...

واحمرّ وجهه ولم يتم عبارته، ورأت فكتوريا في يده آلة تصوير لم تلاحظها من قبل. واستطرد قائلاً: هل تسمحين لي بالتقاط صورة لك؟ خاصة وأنني سأرحل غداً إلى بغداد وقد...

فهتفت فكتوريا بمزيج من الدهشة وخيبة الأمل: إلى بغداد؟

- نعم، وأنا الآن آسف لذلك. كنت صباح اليوم أكاد أطير فرحاً بهذه الرحلة. كنت تواقاً إلى مغادرة إنجلترا في أسرع وقت ولذلك قبلت ما عرضوه عليّ.

- وماذا عرضوا عليك؟

- عرضوا عليّ عملاً تافهاً لم أجد بداً من قبوله، ورئيسي في هذا العمل هو الدكتور راتبون، رجل تحيط باسمه مجموعة من الألقاب الجامعية ولا هدف له في الحياة إلا نشر الثقافة. لقد أنشأ مكتبات في بلاد لم يُسمع عنها بعد وترجم شيكسبير وملتون إلى اللغات العربية والتركية والفارسية والأرمنية. صفوة القول أنه قد كرس حياته لنشر الثقافة الإنجليزية، فهو يؤدي تماماً نفس المهمة التي يضطلع بها المجلس البريطاني.

- ماذا سيكون عملك معه بالضبط؟

- إنني أؤدي عمل السكرتير الخاص والوصيف، فأجهّز

جوازات السفر وأحجز التذاكر وأتحقق من عدد الحقائب... أعتقد أنني سأؤدي في بغداد نفس العمل. وظيفة تافهة، أليست كذلك؟

كان ذلك هو رأي فكتوريا أيضاً فصمتت ولم تجب، وهز إدوارد كتفيه أيضاً وقال وهو يبتسم: لقد نسينا موضوع الصورة. هل لديك مانع من أن ألتقط لك صورتين إحداهما جانبية والثانية أمامية؟

لم يكن لديها مانع أبداً، فاعتدلت في جلستها والتقط إدوارد الصورتين وقال: مما يؤسف له حقاً أن أضطر إلى الرحيل بعد أن عرفتك. كم أود أن أبقى ولكن ليس من اللائق أن أتخلى في آخر لحظة، أليس كذلك؟

- بلى، ثم إنك قد تجد العمل في بغداد أفضل مما تتوقع.

فهز رأسه وأجاب: لا أظن ذلك، ثم إنه يخيل إليّ أن العملية كلها مثيرة للريبة.

- أحقاً تقول؟

- لا تسأليني عما يحملني على هذا الظن. إنه مجرد شعور وسوف أدهش إذا وجدت إنني كنت مخطئاً.

- ومن الذي يثير ريبتك؟ الدكتور راتبون؟

- لا، لا، فهو رجل محترم وعضو في كثير من الجمعيات العلمية، وعلى كل حال فإن الأمور سوف تتضح. أظن أنني يجب أن أذهب الآن، مما يؤسف له أنكِ لا تستطيعين مرافقتي.

- كنت أود ذلك من كل قلبي.

- ماذا ستفعلين الآن؟

- سأبحث عن عمل. سأذهب الآن إلى مكتب سان جيلد ريك بشارع جوار فقد يرشدونني هناك إلى عمل مناسب.

- إلى اللقاء إذن.

- إلى اللقاء يا إدوارد وأرجو لك حظاً سعيداً.

- أظن أنك لن تفكري فيّ.

- تخطئ إذا ظننت ذلك.

- لكم تختلفين عمن عرفت من الفتيات! كنت أود لو أنني بقيت معك وقتاً أطول...

وفي تلك اللحظة دقت إحدى الساعات نصفاً فصاح: يجب أن أذهب فعلاً.

وشيعته فكتوريا ببصرها حتى توارى ثم نهضت وغادرت الحديقة وسارت في الطريق إلى شارع جوار. كانت قد اتخذت قرارين، أولهما أن تقترن بهذا الشاب الذي أحبته من أول نظرة، والثاني أن تحاول السفر إلى بغداد لتلتقي به هناك. لكن كيف تصل إلى بغداد؟ هذه هي المشكلة التي يتعين عليها أن تجد لها حلاً.

* * *

الفصل الثالث

استُقبلت هيلين شيل في فندق سافوي استقبال العملاء المعروفين وسُئلت عن صحة السيد مورجنتال. كانت هيلين شيل في نظر إدارة الفندق تمثل الدولارات الأمريكية التي كانت بريطانيا في أشد الحاجة إليها.

وصعدت هيلين إلى غرفتها فاغتسلت واستبدلت ثيابها واتصلت هاتفياً برقم في كنسنجتون، ثم غادرت الفندق واستقلت سيارة أجرة انطلقت بها إلى محل كارتييه تاجر المجوهرات المعروف في شارع بوند. كان هناك عابر سبيل يتأمل المعروضات في أحد المتاجر منذ وقت طويل، فلما رأى هيلين شيل تغادر الفندق ألقى نظرة في ساعته ثم أشار إلى سائق سيارة أجرة كان ينتظر على مقربة، فانطلق السائق بسيارته في إثر سيارة هيلين شيل. وتوقفت السيارتان أمام إشارة المرور عند مدخل ميدان ترافلغار، وأشار سائق السيارة الثانية بيده خلسة إلى سيارة خاصة كانت تقف في شارع جانبي بمحاذاة إشارة المرور، فتحركت السيارة الخاصة وسارت إثر سيارتي الأجرة، وبعد أن اجتازت سيارة هيلين شيل ميدان ترافلغار انحدرت يساراً في شارع بول مول بينما انحرفت سيارة الأجرة

الثانية نحو اليمين وأفسحت الطريق للسيارة الخاصة لكي تتعقب هيلين شيل.

كان بالسيارة الخاصة شخصان، شاب أشقر أمام عجلة القيادة وفتاة أنيقة تجلس بجواره، ومرت السيارة الخاصة بسرعة وتجاوزت سيارة هيلين وتوقفت في شارع بوند لحظة ريثما هبطت منها الفتاة. أومأت الفتاة برأسها لقائد السيارة مودعة ثم سارت على إفريز الشارع ودخلت محل كارتييه، وبعد دقيقة أو دقيقتين توقفت سيارة هيلين شيل أمام المحل. نقدت هيلين السائق أجره ودخلت محل المجوهرات وقضت بعض الوقت في انتقاء ما تريد، ووقع اختيارها أخيراً على ماسة جميلة وزمردة رائعة دفعت ثمنها بواسطة شيك على أحد بنوك لندن، وما أن وقع نظر البائع على التوقيع في ذيل التحويل حتى أشرقت أسارير وجهه وقال: أهلاً بك يا آنسة شيل، هل جاء السيد مورجنتال إلى لندن؟

- لا.

- إنني أسأل عنه لأن لدينا في الوقت الحاضر مجموعة منقطعة النظير من أحجار الزمرد، وأنا أعلم مبلغ اهتمامه بهذا النوع من الأحجار الكريمة. هل يهمك أن تريها؟

رأت الآنسة شيل أحجار الزمرد وأعجبت بها ووعدت بأن تحدث السيد مورجنتال عنها. أما الفتاة الأخرى التي سبقت شيل إلى المتجر فإنها طلبت بعض الأقراط وقالت للبائعة إنها ستفكر في الأمر، ثم انصرفت في إثر شيل فتبعتها إلى متجر لبيع الزهور حيث طلبت هيلين باقة من الورود الحمراء وأخرى

من زهور البنفسج وأمرت بإرسالها إلى عنوان ذكرته، ثم سألت عن الثمن فقالت البائعة إنه اثنا عشر جنيهاً و ١٨ شلناً، فدفعت هيلين شيل هذا المبلغ وانصرفت. وتبعتها الفتاة الأخرى التي قنعت بأن سألت عن ثمن باقة من زهور النرجس.

انحدرت هيلين شيل في شارع سافيل رو ودخلت محل أحد كبار الخياطين، ورغم تخصص هذا المحل في صنع ملابس الرجال إلاّ أنه يصنع بدلات السيدات بصفة خاصة للعميلات الممتازات. ورحب بها صاحب المتجر واتفق معها على أن تكون التجربة الأولى بعد أسبوع، ومن ثم استقلت سيارة الأجرة إلى فندق سافوي وتبعتها سيارة أجرة استقلها الشاب الأول الذي تعقبها بعد أن غادرت الفندق، ولكنه غادر السيارة بعد قليل وقصد الباب الخلفي الخاص بخدم الفندق، وهناك وجد امرأة في مقتبل العمر تسير جيئة وذهاباً أمام الباب فسألها: هل فتشت الغرفة يا هورتنس؟

- نعم، ولم أجد ما يستحق الذكر.

أما هيلين شيل فإنها تناولت غداءها في مطعم الفندق ثم صعدت إلى غرفتها فوجدتها مرتبة منسقة، واتجه بصرها على الفور إلى حقيبتيها. وتفقدت محتويات الأولى بسرعة، وكانت قد تركتها مفتوحة، ثم انتقلت إلى الثانية ففتحتها. كان يبدو كأن شيئاً فيها لم يمس. ومدت يدها فتناولت حافظة أوراق كانت بالحقيبة ونثرت عليها مسحوقاً مما تستعمله في زينتها ثم نفخت المسحوق وأمعنت النظر في غطاء الحافظة وابتسمت. كانت قد أمسكت بالحافظة في الصباح ويدها لا تزال ملوثة

بالدهون التي تستخدمها في زينتها وكان لا بد أن يلتصق المسحوق بالبصمات التي تركتها أصابعها الملوثة بالدهون على غطاء الحافظة، ولكنها لم تر أثراً للبصمات فقالت: لقد قاموا بعملهم بمهارة، حتى بصمات أصابعي قد أزيلت!

ثم غادرت الغرفة والفندق واستقلت سيارة أجرة ذهبت بها إلى شارع إينسلي. وأمام المنزل رقم ١٧ توقفت السيارة وارتقت هيلين الدرج إلى الطابق الأول وقرعت جرساً، وبعد قليل فتح الباب وأطلت منه سيدة في العقد الرابع من عمرها. نظرت إلى الزائرة بارتياب ثم تهلل وجهها وهتفت قائلة: يا إلهي! ستُسَرّ إيلزا حين تراك، كانت واثقة أنك سوف تحضرين.

سارت هيلين في دهليز طويل انتهى بقاعة استقبال فخمة، وفي أحد مقاعد القاعة كانت تجلس امرأة في مقتبل العمر ما كادت ترى هيلين حتى وثبت واقفة وهتفت: هيلين!

- إيلزا!

تعانقت المرأتان وقالت إيلزا: لقد تمّ إعداد كل شيء. سأذهب مساء اليوم، وأرجو...

فقاطعتها هيلين: اطمئني يا إيلزا، أنا واثقة أن كل شيء سينتهي بخير.

* * *

تناول الرجل القصير القامة ذو المعطف سماعة أحد الهواتف العامة وأدار رقماً وسأل: شركة جراموفون فالهالا؟

- نعم.

– هنا ساندرز، إليك تقرير عن «هـ ش». لقد وصلت من نيويورك صباح اليوم وابتاعت ماسة وزمردة من محل كارتييه بمبلغ مئة وعشرين جنيهاً، ثم ذهبت إلى جين كينترت بائعة الزهور وابتاعت باقتين بمبلغ اثني عشر جنيهاً و١٨ شلناً وأمرت بإرسالهما إلى إحدى العيادات الطبية بميدان بورتلاند، وقصدت بعد ذلك إلى محل بولفورد صانع الثياب في سافيل رو حيث طلبت أن يصنعوا لها بدلة. وليس ثمة ما يثير الريبة في المحلات التي ترددت عليها، ولكن هذه المحلات ستوضع تحت المراقبة، وقد زرنا الغرفة التي تشغلها «هـ ش» بفندق سافوي. لا شيء غير عادي، وجدت في حافظة أوراق بحقيبتها تقارير خاصة بشركة ولفنشتاين ليس بينها ما يهم، كما وجدت آلة تصوير فيها فيلم يبدو أنه جديد لم يستخدم، ولكننا على كل حال قد استبدلناه بفيلم مماثل. بعد ذلك ذهبت لزيارة أختها في المنزل رقم ١٧ بشارع إينسلي. وستنتقل أختها هذا المساء إلى عيادة طبية في ميدان بورتلاند حيث تجرى لها جراحة. سجلات العيادة الطبية تؤكد ذلك. ليس في سلوك «هـ ش» ما يشير إلى أنها تشعر بأن هناك من يتعقبها، وإذا كانت قد شعرت بأي شيء فإنها لم تُبدِ اهتماماً. ومن المحتمل أن تقضي الليلة في العيادة، وقد حجزت مكاناً في الطائرة للعودة إلى نيويورك يوم ٢٣ من الشهر.

كف الرجل القصير القامة عن الكلام لحظة ثم استطرد قائلاً: الرأي عندي أننا نضيع وقتنا وأن كل ما يُلاحظ على «هـ ش» هو أنها تنفق النقود بغير حساب!

* * *

الفصل الرابع

من الإنصاف لفكتوريا جونز أن نقول إنها لم تفكر لحظة واحدة في إمكان فشلها. كانت واثقة من أنها ستصل إلى هدفها عاجلاً أو آجلاً. صحيح أن الشاب الذي أحبته من أول نظرة قد رحل إلى بلد يبعد حوالي ثلاثة آلاف ميل لسوء الحظ، في حين كان يمكن أن يظل في لندن أو أن يرحل إلى مكان قريب مثل بوكسل، إلاّ أن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً لأنها صممت على أن تلحق به حيثما يكون مهما كلفها الأمر.

راحت تفكر في هدوء وهي تسير بخطى بطيئة في شارع توتنهام: بغداد؟ ماذا ستفعل في بغداد؟ لقد تحدث إدوارد عن علاقات ثقافية، ولكن العلاقات الثقافية هي مهمة منظمة اليونسكو، وهذه منظمة لا تستخدم غير الفتيات الحاصلات على مؤهلات جامعية. إذن يجب أن تبحث عن وسيلة أخرى.

رأت أن تعمل بنظام، فذهبت أولاً إلى إحدى شركات السياحة وهناك علمت أنه ليس ثمة من صعوبة في الوصول إلى بغداد وأنها تستطيع السفر بالطائرة أو عن طريق البحر إلى ميناء البصرة، أو أن تستقل القطار إلى مرسيليا ثم الباخرة إلى بيروت

على أن تستأنف الرحلة بعد ذلك بالسيارة، ولكنها وجدت من الأنسب أن تسافر بالطائرة للتخلص من متاعب الحصول على التأشيرات. ولما كانت بغداد تقع في منطقة الإسترليني فلن تكون هناك صعوبات نقدية، لكن المهم هو أن الرحلة سواء بالطائرة أو سواها كانت تتكلف بين ستين جنيهاً ومئة جنيه نقداً، وذلك هو ما أزعج فكتوريا لأنها لم تكن تملك في تلك اللحظة سوى ثلاثة جنيهات و ١٢ شلناً، عدا خمسة جنيهات في صندوق توفير البريد.

ومرت في طريقها بإحدى شركات الطيران فسألت عما إذا كانت الشركة بحاجة إلى مضيفات، وكان الجواب أن الوظائف مشغولة وأن لدى الشركة مئات من طلبات الاستخدام وقد تمضي بضعة شهور قبل أن تطلب أصحابها لاختبارهم. ثم قصدت إلى مكتب التخديم الذي تعودت التعامل معه وهو مكتب سان جتريك، فاستقبلتها الآنسة سبنسر صاحبة المكتب بالابتسامة المرحة التي تدّخرها عادة للفتيات اللاتي يكثرن من التردد عليها وهتفت قائلة: أهذه أنت يا آنسة جونز؟ كنت أظن أن الوظيفة التي ألحقتك بها أخيراً قد...

- لقد تركتها.

- أحقاً؟ إذن دعينا منها.

- هل لديك عمل لي؟

راحت الآنسة سبنسر تبحث في دفاترها، فقالت فكتوريا: أريد عملاً في بغداد.

- في بغداد؟!

نظرت إليها الآنسة سبنسر في دهشة فقالت فكتوريا: نعم، أريد الذهاب إلى بغداد.

- بوظيفة سكرتيرة؟

- إنْ وجدت. ولكن لا مانع لديّ من أن أذهب كممرضة أو طاهية أو مربية أطفال، المهم أن أذهب إلى بغداد.

هزت الآنسة سبنسر رأسها وقالت: لا أعتقد أن ثمة أمل. بالأمس طلبت إحدى السيدات فتاة ترافق ابنتها إلى أستراليا.

- كلا، أريد بغداد. بحسبي أن أصل إليها.

رأت في عيني الآنسة سبنسر نظرة تساؤل فتابعت قائلة: إن لي هناك أصدقاء يستطيعون أن يهيئوا لي عملاً بأجر كبير.

وعندما غادرت المكتب ابتاعت إحدى الجرائد وتصفحتها، وخيّل إليها أن كل كلمة فيها تتحدث عن بغداد، فالأستاذ بونسفوت جونز عالم الآثار المشهور يقوم ببعض الحفريات في منطقة موريك الأثرية على بعد عشرين ميلاً من بغداد، وثمة لوحة إعلانية تقول إنه يمكن الوصول إلى بغداد عن طريق البحر إلى البصرة ثم بالقطار إلى بغداد والموصل، وإعلان سينمائي عن فيلم «لص بغداد»ونقد أدبي ظهر حديثاً بعنوان «هارون الرشيد خليفة بغداد»...

خيّل إلى فكتوريا أن الدنيا كلها تتحدث عن بغداد التي لم تثر اهتمامها هي إلاّ منذ الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم.

وأحست بأنها لن تستطيع الوصول إلى بغداد بسهولة، ولكنها مع ذلك لم تفقد الأمل. وفي المساء قبل أن تذهب إلى فراشها سجلت الأبواب التي يجب أن تطرقها للحصول على عمل في بغداد على النحو التالي: نشر إعلان في الصحف عن طلب وظيفة في بغداد، وزارة الخارجية، سفارة العراق، الشركات التي تستورد التمر العراقي وشركات الملاحة... وكانت تتوقع الفشل لذلك فسجلت التساؤل التالي: "كيف يمكن الحصول على مئة جنيه؟".

* * *

استيقظت فكتوريا جونز في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وارتدت ثيابها على عجل، وعدما همت بتصفيف شعرها دق جرس الهاتف فتناولت السماعة. كان المتحدث هو الآنسة سبنسر وكان صوتها يدل على الانفعال. هتفت قائلة: يا إلهي! كم أنا سعيدة بأنني وجدتك، لقد حدثت مصادفة عجيبة حقاً.

- مصادفة؟

- نعم، فإن سيدة تدعى هاملتون كليب تعتزم السفر إلى بغداد بعد ثلاثة أيام، وقد أصيبت بكسر في ذراعها وهي بحاجة إلى فتاة ترافقها في رحلتها، ولكنني لا أعلم ما إذا كانت قد اتصلت بمكاتب تخديم أخرى.

- سأذهب إليها على الفور، أين تقيم؟

- في فندق سافوي.

- تقولين إن اسمها السيدة تريب؟

- كلا، السيدة هاملتون كليب، زوجها هو الذي اتصل بي.

- أنت جوهرة! سأذهب إليها في الحال.

وارتدت خير ما عندها من ثياب وأعادت تصفيف شعرها لكي تبدو جادة رصينة. وقبل أن تنصرف أعادت قراءة الشهادة التي كتبها لها السيد جرينهولز وهزت كتفيها. استقلت فكتوريا جونز الحافلة إلى جرين بارك، وحانت منها التفاته إلى جريدة في يد راكبة تجلس بجوارها فلمحت نبأ مفاده أن الليدي كاينثيا برادبوري أبحرت في اليوم السابق إلى غرب أفريقيا، فسجلت النبأ في ذهنها.

وغادرت الحافلة وقصدت إلى فندق ريتز، وهناك في صالة الفندق وعلى ورقة تحمل اسمه كتبت شهادة أشادت فيها بأخلاق فكتوريا جونز وعملها ووقعتها باسم الليدي كاينثيا. وبعد بضع دقائق انطلقت إلى فندق بالدرتون، وهو مكان يقصده كبار رجال الكنيسة والأرامل المسنات القادمات من الأقاليم، وهناك على ورقة تحمل اسم الفندق وبخط رصين يختلف تماماً عن خط الليدي كاينثيا كتبت شهادة أخرى أطرت فيها سلوك فكتوريا جونز ونسبتها إلى أسقف لانجو. وتسلحت فكتوريا بهاتين الشهادتين واستقلت حافلة أخرى أوصلتها إلى مقربة من فندق سافوي.

دخلت الفندق بقدم ثابتة وطلبت إلى موظف الاستقبال أن يوصلها هاتفياً بالسيدة هاملتون كليب، وهم الموظف بإجابتها إلى ما طلبت ثم عاد ووضع السماعة وهو يقول: ها هو السيد

هاملتون كليب يغادر المصعد.

كان هاملتون كليب رجلاً طويل القامة أمريكي المظهر تنم قسمات وجهه عن الدعة وسعة الصدر، فاقتربت منه وذكرت له اسمها وقالت إنها قادمة من مكتب تخديم سان جتريك، فقال السيد هاملتون: حسناً يا آنسة جونز، إن السيدة كليب في غرفتها وسأرافقك الآن إليها، ولكني أعتقد أن فتاة أخرى قد جاءت لمقابلتها لنفس الغرض.

اصفرّ وجه فكتوريا وأحست بالدنيا تدور من حولها. ترى هل ستفشل الآن بعد أن أصبحت من هدفها قاب قوسين أو أدنى؟

* * *

رافقها هاملتون كليب إلى الطابق الثالث وسار معها في دهليز طويل، وفجأة أحست أنها في حلم لا في يقظة، فقد وقع بصرها على فتاة مقبلة نحوهما خيّل إليها للحظة قصيرة أنها تشبهها كل الشبه. ربما لأن الفتاة كانت ترتدي بدلة أنيقة إلى أقصى حد. لطالما تمنت أن يكون لديها مثل هذه البدلة! ومرت بهما الفتاة، ويبدو أن السيد هاملتون كليب قد عرفها حالما مرت به لأنه ما لبث أن أدار وجهه في إثرها وغمغم قائلاً: هيلين شيل؟ يا إلهي! من كان يظن أنني سأقابلها هنا؟

ثم تحول إلى فكتوريا وقال: معذرة يا آنسة فقد أدهشني أن أجد هنا في لندن هذه الفتاة التي قابلتها في نيويورك منذ أقل من أسبوع. إنها سكرتيرة أحد كبار الماليين الدوليين.

توقف هاملتون كليب أمام باب وطرقه، ثم فتحه ودخل قبل أن يلقى جواباً ووقف جانباً ليسمح لفكتوريا بالدخول. كانت زوجته تجلس في مقعد كبير بالقرب من النافذة فنهضت لاستقبالهما. كانت قصيرة القامة ضيقة العينين وقد عصبت ذراعها وشدته إلى عنقها. وقدم السيد هاملتون الفتاة إلى زوجته فقالت الأخيرة: أليس من سوء الحظ أن يحدث لي ما حدث يا آنسة جونز؟ كنت في طريقي إلى العراق لزيارة ابنتي المتزوجة هناك والتي لم أرها منذ عامين. ثم خطر لي أن أشهد معالم لندن قبل الرحيل إلى بغداد، وبينما كنت أشاهد دير وستمنستر زلت قدمي فكسرت ذراعي. إنني لا أتألم كثيراً ولكنني أشعر بعجزي عن السفر، خاصة وأن أعمال زوجي ستضطره إلى البقاء في لندن ثلاثة أسابيع قبل أن يلحق بي، وقد خطر لي أن أستخدم ممرضة ترافقني إلى بغداد ثم تعود إلى لندن تواً لأنني لن أحتاج إليها، فسوف أكون هناك في رعاية ابنتي وزوجها. لكنني عدت ففكرت في أنني إذا لجأت إلى مكاتب التخديم فقد أجد فتاة ترضى بمرافقتي لقاء أجر الرحلة.

قالت فكتوريا في تواضع إنها لا تستطيع أن تعدّ نفسها ممرضة بالمعنى المفهوم رغم أنها قامت بتمريض الليدي كاينثيا برادبوري عاماً بأسره. وقدمت الشهادة التي تحمل توقيع الليدي واستطردت قائلة: أما أعمال السكرتارية فإنني أجيدها كل الإجادة وقد مارستها مع عمي أسقف لانجو. قالت ذلك في تواضع وقدمت شهادة الأسقف، فقالت السيدة كليب

وهي تدفع بالشهادتين إلى زوجها: لاشك أن العناية الإلهية قد أرسلتك إليّ يا بنيتي العزيزة!

فابتسمت فكتوريا في حياء وتابعت السيدة كليب قائلة: هل تعرفين أحداً في بغداد يا آنسة جونز، أو هل توجد في انتظارك وظيفة هناك؟

فوجئت فكتوريا بهذا السؤال. لم تكن قد فكرت في شيء آخر غير الشهادات فلم يخطر ببالها أن تسأل عن سبب رغبتها في السفر إلى بغداد. وجاء جوابها ذكياً وجريئاً وقائماً على نبأ قرأته في إحدى الصحف في اليوم السابق فقالت: الواقع أنني أريد اللحاق بعمي الدكتور بونسفوت جونز.

- عالم الآثار؟

- نعم.

وأدركت بعد فوات الأوان أنها قد نسبت نفسها إلى كثير من الأعمام المشهورين، ولكن لم يكن بوسعها أن تتراجع فتابعت: إنني شديدة الاهتمام بعمله، ولم أستطع الانضمام إلى بعثته بسبب قلة الاعتمادات المالية.

فقال السيد هاملتون: مما لا شك فيه أن أرض العراق غنية بالآثار التي تثير اهتمام العلماء وفضولهم.

التفتت فكتوريا إلى الزوجة وقالت: أخشى أن يكون عمي الأسقف قد سافر إلى اسكتلندا، ولكن يمكنك الاتصال به في رقم ٩٧٦٩٣ للحصول على كافة الاستعلامات بشأني.

- أظن أنني...

فقاطعها زوجها قائلاً: الوقت ضيق وستقلع الطائرة بعد غد. هل لديك جواز سفر يا آنسة؟

- نعم، وقد أحضرته معي.

- هذا حسن، هذا حسن. إنني أحب الأشخاص العمليين. سوف تحتاجين إلى بعض التأشيرات، وأعتقد أن صديقي برجسون الموظف بشركة أميركان أكسبرس يستطيع إنجاز هذه المهمة، ولكن يجب أن تمكثي معنا هنا فقد يحتاج برجسون إلى توقيعك.

وعدت فكتوريا بالعودة في الساعة الرابعة وانطلقت بسرعة إلى شقتها وجلست أمام الهاتف، وتمرنت على محاكاة صوت سكرتيرة الأسقف فيما لو خطر للسيدة كليب أن تستفسر عن الفتاة التي استخدمتها، ولكن السيدة كليب لم تتصل.

وفي مساء ذلك اليوم كانت أوراق فكتوريا قد استكملت تماماً، وقضت الفتاة ليلتها الأخيرة في لندن بفندق سافوي لكي تعاون السيدة كليب في حزم أمتعتها للرحيل في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي.

* * *

الفصل الخامس

كان التيار قوياً فلم يجد عبد الله سليمان الشيخ الذي قضى الأعوام الأخيرة في نقل المسافرين بقاربه عبر شط العرب إلى البصرة، لم يجد ما يصنعه سوى أن يترك القارب للتيار ويسبل أهدابه ويترنم بإحدى الأغنيات بصوته الهادئ الحزين. كان القارب خالياً إلاّ من راكب واحد يرتدي جلباباً طويلاً وسترة صفراء ممزقة ويضع حول عنقه كوفية حمراء، وقد أخذ هذا الراكب ينظر إلى الماء دون أن يراه ويهمس بنفس الأغنية التي يترنم بها الشيخ.

كان وجهه يشبه وجوه كثيرين ممن يعيشون بين دجلة والفرات بحيث يستحيل على من ينظر إليه أن يتصور أنه إنجليزي لحماً ودماً وأنه يطوي صدره على سر خطير قد يكلفه حياته. كان ينظر إلى الماء ولا يراه لأنه كان مستغرقاً في التفكير، وراح يستعرض الماضي القريب ويفكر في الكمائن التي نصبت له في الجبل والأيام الأربعة التي قضاها هائماً على وجهه في الصحراء والليالي التي قضاها في الخيام. كان ينظر إلى الماء ولا يراه لأنه كان مستغرقاً في أصدقائه القدامى، رجال قبيلة العنايرة والأعداء الذين يترصدونه ليحولوا بينه وبين أداء مهمته.

لقد خيّل إليه أن كل إنسان صادفه في رحلته يعلم كل شيء عنه ويعرف أنه هنري كارمايكل، العميل البريطاني الذي يتكلم العربية والكردية والفارسية والأرمنية والهندية والتركية ويجيد لهجات سكان الجبال وله أصدقاء في جميع القبائل.

كان رؤساءه قد تركوا له حرية العمل فاختار من الطرق ما يكفل له أكبر قدر من الطمأنينة والسلامة، وحرص على كتمان خطته للوصول إلى بغداد، خاصة بعد أن تخلفت الطائرة التي كان مقرراً أن توافيه في مكان متفق عليه مما أقنعه بأن أدق الأسرار يمكن أن تتسرب بطريقة غامضة تثير الريبة في رؤسائه أنفسهم. قال له البحار الشيخ: لقد اقتربنا يا بني، كان الله معك.

- عد على الفور يا عم، فلا أريد أن يصيبك مكروه.

- لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، إن حياتي بين يدي الله.

وانحرف البحار الشيخ بقاربه وسار به متمهلاً حتى بلغ ضفة النهر، وهناك قال: لقد وصلنا، وفقك الله وأطال بقاءك.

وثب كارمايكل إلى الضفة، وسرعان ما وجد نفسه في جو مألوف وسط صبية يبيعون مختلف أنواع الفاكهة والحلوى ورجال يروحون ويغدون في غير عجلة، وفي الجانب الآخر من الشارع حيث الحوانيت والبنوك كان عدد كبير من الأوروبيين أكثرهم من الإنجليز يشقون طريقهم وسط عدد أكبر من الوطنيين. سار كارمايكل ببطء دون أن ينظر يمنة أو يسرة كمن لا يعنيه شيء مما يقع تحت بصره، فعبر الجسر ومشى في السوق

حيث الزحام والضوضاء وحيث يتدافع الناس ليشقوا لأنفسهم طريقاً. وعلى الرغم من ثقته بأن أحداً في هذا الزحام لا يشعر بوجوده أو يقيم له وزناً فقد أحس عن يقين بأن هناك خطراً يحوم حوله. لم يعرف لهذا الإحساس مصدراً أو سبباً، كان مطمئناً إلى أنه ليس هناك من يتعقبه أو يراقبه، ومع ذلك فقد أحس بالخطر بغريزته التي قلما تخطئ.

انحدر في طريق جانبي ضيق ثم انحرف يساراً فوجد نفسه في فناء واسع تحفّ به حوانيت تبيع مختلف البضائع. وقف أمام حانوت للفراء والأدوات الجلدية، وكان صاحب الحانوت في تلك اللحظة يقدم القهوة لأحد زبائنه، وهو شيخ مهيب الطلعة له لحية بيضاء وعلى رأسه طربوش تحيط به عمامة خضراء. أشار كارمايكل إلى إحدى قطع الفراء وسأل التاجر: بكم هذا؟

- بسبعة دنانير.

- هذا ثمن باهظ.

قال الشيخ ذو اللحية البيضاء محدثاً التاجر: هل ستبعث إليّ بالسجاجيد اليوم؟

- بغير شك، هل سترحل غداً؟

- نعم، سأذهب إلى كربلاء.

قال كارمايكل: كربلاء؟ إنها مسقط رأسي، ولكني لم أرها ولم أزر قبر الحسين منذ خمسة عشر عاماً.

فقال التاجر: إذا كنت تريد فراء رخيص الثمن فعندي ضالتك.

- أريد فراء أبيض.

- إن مخزني مليء بالفراء الأبيض.

وأشار إلى باب في آخر الحانوت يؤدي إلى المخزن. كان هذا الحديث عادياً ومألوفاً في السوق كل يوم، ولكنه تضمن كلمتي السر المتفق عليهما: «كربلاء» و«الفراء الأبيض».

رافق التاجر عميله إلى المخزن، وهناك نظر كارمايكل إلى وجه التاجر لأول مرة واكتشف أنه ليس الوجه الذي كان يتوقع أن يراه. كان يشبهه إلى درجة مذهلة ولكنه ليس هو. سأل في دهشة: إذن أين صلاح حسن؟

- لقد توفي أخي المسكين منذ ثلاثة شهور وأنا الذي حللت محله.

كان الشبه بين الأخوين واضحاً، وإذا كان أحدهما قد عمل في خدمة المخابرات البريطانية فليس ثمة ما يمنع الآخر أن يحذو حذوه. على أن الاحتمال لم يمنع كارمايكل من الأخذ بأسباب الحذر. كان المخزن ضيقاً والإضاءة به ضعيفة والبضائع مبعثرة فيه بغير نظام، ورأى كارمايكل في وسط المخزن مائدة صغيرة عليها فراء أبيض، فرفع الفراء ووجد تحته ثوباً أوروبياً جيد الصنع في أحد جيوبه نقود وأوراق، فتنفس الصعداء.

لقد دخل المتجر كعربي مجهول ولكنه سيغادر بعد دقائق

بصفته الجديدة كالسيد ولتر ويليمز ممثل شركة كروس وشركاه، وكلاء شركات الملاحة وأصحاب مكتب للاستيراد والتصدير. والسيد ولتر ويليمز موجود فعلاً وهو من رجال الأعمال المعروفين في المدينة، ومرة أخرى تنهد كارمايكل بارتياح وراح يفحص الثوب الذي أعد له. ولو قد فكر أعداؤه في استخدام المسدس للتخلص منه لأصبح في عداد الأموات في تلك اللحظة بالذات، ولكن من حسن حظه أنهم آثروا استخدام الخنجر، ربما لأنه لا يحدث صوتاً كالمسدس. كان خنجراً ذا نصل طويل مقوس في يد شخص توارى خلف الثياب المكدسة في المخزن. ولم يرَ كارمايكل الخنجر أو الشخص ولكنه رأى بريق النصل منعكساً على آنية نحاسية لامعة موضوعة في أحد الأركان، ولو تريث لحظة لغاص النصل بين كتفيه ولكنه استدار بسرعة البرق وأمسك بيد الرجل وألقاه أرضاً فأفلت الخنجر من قبضة يده وطار بعيداً، ولم يحفل كارمايكل بخصمه وإنما أطلق ساقيه للريح وغادر المتجر مسرعاً، ولم يتئد بمشيته إلاّ عندما وجد نفسه بين المارة في السوق.

توقف مرة أو مرتين ليفحص قطعة من القماش أو بعض أدوات القهوة، ولكن ذهنه كان يعمل بسرعة. لقد وجد نفسه مرة أخرى وحيداً وسط أعداء لا حصر لهم، يستطيعون أن ينالوه حتى في اللحظة التي يتوهم فيها أنه قد أصبح في مأمن من الأخطار. ترى هل استطاع العملاء الأجانب التسلل إلى صفوف المخابرات البريطانية لكي تنكشف كل حركاته وسكناته على هذا النحو المذهل؟ لكن ذلك لا يهم الآن،

المهم هو أنه وحيد صفر اليدين وليست لديه أية وسيلة للتنكر وإخفاء شخصيته. ولم ينظر وراءه. وما الفائدة؟ إن الذين يتعقبونه ليسوا سذجاً.

سار على غير هدى إلى أن وجد نفسه أخيراً خارج منطقة السوق، فعبر الجسر وسار في الشارع المؤدي إلى القنصلية البريطانية. كان من اليسير عليه أن يتسلل إلى مبنى القنصلية ولكنه تردد. إن الفئران لا تجد صعوبة في دخول المصيدة ولكنها لا تعرف المصير الذي ينتظرها بعد الدخول.

كانت مخاطرة لا مفر منها فليس أمامه سبيل آخر.

* * *

الفصل السادس

قبع ريتشارد بيكر في قاعة الانتظار بالقنصلية ريثما يفرغ القنصل لمقابلته. كانت الباخرة التي استقلها إلى البصرة قد وصلت في الموعد المقرر خلافاً لما توقع، وكانت النتيجة أنه وجد أمامه فترة فراغ تزيد على ثمان وأربعين ساعة قبل أن يتمكن من مواصلة رحلته عن طريق بغداد إلى التل الأسود، مقر الحفريات التي يعمل فيها مع الدكتور بونسفوت جونز، ولكنه كان يعرف كيف يستطيع قضاء هذه الثماني والأربعين ساعة.

كانت توجد في الجانب الآخر بالقرب من الكويت منطقة يقال إنها كانت مركزاً للحضارة القديمة، فقرر أن يقوم برحلة سريعة إليها للبحث والدراسة، واستفسر في المطار عن أسرع السبل للوصول إلى الكويت فقيل له إن طائرة ستقلع إلى الكويت في الساعة العاشرة صباحاً وإنه يستطيع العودة بها في اليوم التالي، ولكن لا بد من الحصول على تأشيرة دخول من القنصلية البريطانية.

تذكر بيكر أنه سبق وأن اجتمع في إيران بالسيد كلايتون

الذي يشغل منصب القنصل العام في البصرة فقرر أن يقابله. وأرسل إليه بطاقته، فجاءه الخادم لينبئه بأن السيد كلايتون مشغول ولكنه سيستقبله بعد بضع دقائق، وقاده إلى قاعة للانتظار تطل على حديقة مترامية الأطراف.

كان بالقاعة عدة أشخاص ينتظرون مقابلة القنصل العام، فألقى بيكر نظرة سريعة ثم راح يتأملهم واحداً بعد الآخر. كان بينهم رجل عربي يرتدي جلباباً وسترة صفراء وكوفية حمراء وعقالاً وفي يده مسبحة يحرك حباتها بأصابعه، ورجل إنجليزي بدين أبيض شعر الرأس والشاربين يسجل أرقاماً على ورقة في يده ويبدو أنه يعمل مندوباً تجارياً، ورجل أسمر البشرة تبدو عليه دلائل التعب ولعله كان سعيداً إذ وجد أخيراً مقعداً وثيراً يجلس عليه، ثم رجل إيراني يرتدي ثوباً ناصع البياض. وقد ظل العربي طوال الوقت يحرك حبات المسبحة حبة بعد أخرى. وفجأة أحس بيكر بأن صوت ارتطام كل حبة بالتي سبقتها يذكره بشيء. شَرطة، نقطة، شَرطة، نقطة... إنها شفرة مورس التي تستخدم في إرسال البرقيات، وقد تعلمها واستخدمها حين كان يعمل في الجيش إبان الحرب. أرهف أذنيه وراح يترجم الصوت إلى حروف ويؤلف من الحروف كلمات، فحصل على كلمتي: «البومة، إيتون».

«البومة»؟ إنه الاسم الذي كان يطلق عليه في كلية إيتون لأنه كان يضع على عينيه نظارة ضخمة ذات إطار كبير. ونظر جيداً إلى العربي فوجد أنه لا يختلف عن عشرات العرب الذين يقابلهم الإنسان في السوق. كانت عيناه تنظران بعيداً وليس في نظراته ما يوحي بأنه يعرفه. واستمرت حبات المسبحة في

نقراتها المنتظمة وترجم بيكر النقرات كما يلي: «أنا الفقير، إنني أعتمد عليك».

حار بيكر في الأمر. الفقير؟ أي فقير؟ آه، طبعاً! الفقير كارمايكل. لقد أطلق عليه زملاؤه في الكلية هذا الاسم لأنه ولد وعاش في منطقة نائية، لعلها تركستان أو أفغانستان أو الهند حيث توجد طائفة الفقراء. أخرج بيكر غليونه من جيبه ونظر فيه ثم راح يدق عليه بأصابعه كأنما ليزيل منه بقايا التبغ، وكان معنى هذه الدقات: «تسلمت رسالتك».

كانت الأحداث التي وقعت بعد ذلك سريعة مذهلة إلى حد أن ريتشارد بيكر لم يستطع فيما بعد أن يذكر تفصيلاتها تماماً، فقد نهض العربي من مكانه ومشى نحو الباب، وحين أصبح أمام بيكر زلت قدمه فاستند على هذا الأخير ليمنع نفسه من السقوط، ونطق بكلمة اعتذار وواصل سيره. وفي ذات اللحظة ترك الإنجليزي البدين أوراقه ودس يده في أحد جيوبه الداخلية بحركة سريعة لا تتفق مع بدانته وأخرج مسدساً، وبأسرع من لمح البصر انقض عليه بيكر وهوى على يده بقبضته فسقط المسدس على الأرض وانطلقت منه رصاصة سكنت الجدار. أما العربي فإنه اختفى تماماً وانطلق يعدو في الدهليز الموصل إلى مكتب القنصل ثم انحرف يساراً فوجد نفسه في الحديقة فوثب فوق السور وتوارى وسط الزحام.

أقبل خادم القنصل مهرولاً فوجد بيكر ممسكاً يساعد الإنجليزي البدين بينما لم يحرك أحد من الآخرين ساكناً،

وصاح بيكر بالرجل الإنجليزي: ما معنى هذا؟ لماذا أطلقت الرصاص؟

فأجاب الرجل محتجاً: أنا لم أطلق الرصاص، لقد سقط المسدس فانطلقت الرصاصة.

- لقد أردت إطلاق الرصاص على ذلك العربي الذي فرّ في التو واللحظة.

- إنما أردت إرهابه. لقد عرفته حين نهض واقفاً وعرفت فيه شخصاً باعني قطعة أثرية زائفة. كنت أقصد مداعبته وإرهابه فحسب.

وكان بيكر يكره الدعاية فتظاهر بالاقتناع بأعذار الرجل رغم تفاهتها، أولاً لأنه لا يملك دليلاً ضده وثانياً لأن كارمايكل ربما لا يوافق على إثارة ضجة حول الحادث. راح الخادم ينحي باللائمة على الرجل الذي أطلق الرصاص في القنصلية وقال إن القنصل لن يغفر مثل هذا السلوك فأجاب الإنجليزي: لقد قلت إن الرصاصة انطلقت قضاء وقدراً وأنا آسف لذلك، وعلى كل حال فإنني سأنصرف الآن وسوف أحاول مقابلة القنصل في فرصة أخرى.

ثم قدم بطاقته لريتشارد بيكر واستطرد قائلاً: إليك اسمي، وأنا أقيم بفندق المطار ويمكن الاتصال بي هناك إذا تطورت الأمور، ولكني أؤكد لك مرة أخرى أن الأمر كان مجرد دعابة.

انصرف الرجل، وبعد لحظة دعي بيكر لمقابلة القنصل. كان رجلاً نحيلاً في العقد الخامس من عمره فابتدره بيكر

بقوله: لا أعلم إذا كنت تعرفني أم لا، لقد تقابلنا في طهران منذ عامين.

- بل أذكرك جيداً. كنت وقتئذٍ مع الدكتور بونسفوت جونز، أليس كذلك؟ هل جئت معه أيضاً هذه المرة؟

- نعم، ولكني أجد لديّ فسحة من الوقت قبل أن الحق به وأود قضاء هذا الوقت في القيام بزيارة سريعة للكويت، فهل هناك مانع؟

- لا مانع أبداً. ستقلع الطائرة غداً صباحاً فتصل إلى الكويت بعد ساعة ونصف. سأبرق الآن إلى أرشي جونت مندوبنا المقيم هناك لكي يستقبلك ويعد لك مكاناً للإقامة، أما الليلة فإنك ستقضيها في ضيافتي.

- لا أريد إزعاجك، في استطاعتي أن أقضي الليلة في الفندق.

- إن فندق المطار مليء بالنزلاء، وسيكون من بواعث سرورنا أنا وزوجتي أن نستضيفك الليلة. إن لدينا ضيفين آخرين: السيد كروسبي الموظف بشركة البترول وشاب آخر يعمل مع الدكتور راتبون ويقضي نهاره مع رجال الجمارك للتخليص على أمتعة الدكتور وكتبه.

كان كلايتون يقيم بالطابق الأول فوق مكتب القنصلية، وقد عرفت زوجته ريتشارد بيكر حالما رأته فرحبت به قائلة: لقد طفنا معاً بأسواق طهران وأذكر أنك ابتعت مجموعة من السجاجيد الثمينة.

فأجاب بيكر: إنها خير صفقة عقدتها والفضل فيها لك.

قال كلايتون: بيكر يعتزم السفر غداً إلى الكويت، وقد دعوته لقضاء الليلة معنا.

قالت زوجته: بالطبع. لكني لا أستطيع أن أقدم لك أفخم غرفة عندنا لأن الكابتن كروسبي يشغلها، سأقدم لك غرفة أخرى مريحة.

استأذن القنصل في الانصراف للعودة إلى مكتبه وقال: يبدو أن حادثاً قد وقع في قاعة الانتظار، فقد قيل لي إن شخصاً شهر مسدسه...

قاطعه بيكر قائلاً: الواقع إنني قد شهدت الحادث. إن بطله رجل إنجليزي أراد مداعبة أحد العرب ولكني جردته من سلاحه، وإليك بطاقته.

وقدم للقنصل بطاقة الإنجليزي البدين فقرأ فيها: روبرت هول، مصانع أشيل، إنفلد. لا أعرف لماذا أراد مقابلتي، هل كان ثملاً؟

- لا أعلم، لقد زعم أنه أراد مداعبة العربي وأن الرصاصة قد انطلقت قضاء وقدراً.

قطب كلايتون حاجبيه وقال: إن رجال الأعمال لا يزورون القنصلية عادة وفي جيوبهم مسدسات محشوة.

فقال بيكر: أظن أنه ما كان ينبغي لي أن أدعه يذهب.

– ليس من السهل في مثل هذه الظروف أن يعرف الإنسان ما ينبغي عليه عمله. هل أصيب العربي؟

– كلا.

– إذن فقد أحسنت بإخلاء سبيل الرجل.

– ولكني أعتقد أن وراء الأكمة ما وراءها.

– وأنا أيضاً أعتقد ذلك.

عاد القنصل إلى مكتبه بينما رافقت زوجته بيكر إلى قاعة الاستقبال وقدمت له كوباً من القهوة. وسألته عن سبب سفره إلى الكويت فأجابها، وسألته لماذا لم يتزوج بعد فقال إنه يكرس كل وقته للعمل ولا يفكر في أي شيء آخر، فسألته: ألا توجد فتيات يعملن معكم في الحفريات؟

– بل توجد فتاة أو فتاتان، عدا زوجة الدكتور بونسفوت جونز بطبيعة الحال.

في تلك اللحظة دخل عليهما رجل قصير القامة عريض الكتفين فقدمته السيدة كلايتون إلى ريتشارد بيكر باسم الكابتن كروسبي، وقالت لكروسبي عن ريتشارد بيكر إنه عالم آثار ينتظره مستقبل عظيم وإنه قد اكتشف مجموعة قيّمة من الآثار يرجع تاريخها إلى آلاف السنين.

قال الكابتن إنه لم يفهم قط كيف يستطيع العلماء تحديد عمر الآثار التي يكتشفونها وإنه يعتقد أنهم يكذبون على الناس، فنظر إليه بيكر في إشفاق ولزم الصمت، فقال كروسبي

ضاحكاً إنه أراد مداعبته ويود أن يعرف كيف يحدد العلماء عمر الآثار. أجاب بيكر بأن ذلك يتطلب شرحاً طويلاً، فأنهت السيدة كلايتون الحديث بقولها: ليكن ذلك في وقت آخر، أما الآن فدعني أرشدك إلى غرفتك.

عندما خلا بيكر بنفسه أخذ يتفقد الغرفة ويده في جيبه، فشعر فجأة بأن في قاع الجيب ورقة مطوية لم يتذكر أنه وضعها فيه. ألا يحتمل أن يكون كارمايكل قد دسها في جيبه حين تظاهر بأن قدمه زلت فاستند عليه؟ أخرج الورقة من جيبه وبسطها فتبين أنها قد طويت مراراً من قبل حتى كادت أن تبلى وأنها كتبت منذ ثمانية عشر شهراً، ذلك إذا صح التاريخ المسجل فيها. كانت تتضمن توصية من الميجور ويلبر بشخص يدعى أحمد محمد، قال فيها إنه رجل نشيط أمين يجيد قيادة سيارات النقل وإصلاحها.

قطب ريتشارد بيكر حاجبيه واستغرق في التفكير. من المؤكد أن كارمايكل كان يشعر بأن حياته مهددة فلجأ إلى القنصلية في طلب النجدة، ولكن الخطر تعقبه إلى هناك والعدو الذي يخشاه كان له بالمرصاد في قاعة الاستقبال، ومما لا شك فيه أن الرجل البدين قد تلقى أمراً صريحاً محدداً فلم يتردد وحاول الفتك بكارمايكل في دار القنصلية في وضح النهار وأمام شهود، مما يدعو إلى الاعتقاد بأن الأمر عاجل وعلى جانب عظيم من الأهمية. ويبدو أن كارمايكل قد تبين الخطر وأحس بمصدره فلم يكد يتعرف على زميله في الجامعة حتى استغاث به، وحرص على أن ينقل إليه تلك الوثيقة التي قد يكون لها من الأهمية أكثر مما يبدو من ظاهرها. فإذا

استطاع أعداء كارمايكل الإيقاع به ولم يجدوا معه الوثيقة فمن المؤكد أنهم سيواصلون البحث لمعرفة الشخص الذي انتقلت إليه.

ماذا يفعل بالوثيقة الآن؟ هل يقدمها للسيد كلايتون بصفته ممثل حكومة صاحبة الجلالة ملكة إنجلترا أم يحتفظ بها حتى يعود كارمايكل لاستردادها؟ صحت عزيمته على الرأي الثاني، وهو الاحتفاظ بالوثيقة مع اتخاذ الحيطة اللازمة، ولذلك قرر كتابة وثيقة مماثلة بخط مشابه بقدر الاستطاعة ولكن بمضمون مختلف تماماً، وبعد أن فرغ من ذلك أجرى يده على نعل حذائه ثم مرّ بها على الورقة وطواها مراراً ليكسبها مظهر القدم. ثم تناول الوثيقة الأصلية وغلفها بقطعة من ورق السلوفان، ثم أحاطها بطبقة من الصلصال وصورها في شكل قطعة أثرية وضعها في مكتبه، أما الوثيقة الزائفة فدسها في جيبه.

في صباح اليوم التالي عندما استيقظ مبكراً ليستقل الطائرة للكويت وضع يده في جيبه فلم يجد أثراً للوثيقة الزائفة!

* * *

الفصل السابع

كانت فكتوريا جونز تنظر إلى الحياة من خلال منظار وردي وهي جالسة مع السيدة كليب في قاعة الانتظار المطلة على المطار. لقد مر موظف المطار منذ لحظات ونادى بالمسافرين إلى القاهرة وبغداد وطهران أن يستعدوا.

ثلاثة أسماء مرّت بمخيلة فكتوريا وذكرّتها بكل ما قرأته وسمعته عن الشرق وسحره وغموضه، وطبيعي أن ذكر هذه الأسماء الثلاثة لم يحدث أي أثر في نفس السيدة كليب التي قضت جانباً كبيراً من عمرها في الطائرات والبواخر والقطارات. كانت فكتوريا تنعم بكل دقيقة من حياتها منذ غادرت فندق سافوي في الصباح رغم ثرثرة السيدة كليب وما طبعت عليه من التفكير بصوت مسموع. راحت السيدة كليب تستعرض زملاءها في الرحلة فقالت: هذان الطفلان جميلان حقاً، ولكن مرافقة الأطفال في الطائرات أمر مزعج. لا بد أنهما إنجليزيان، أما هذا الرجل ذو الثياب الصارخة الألوان فهو فرنسي بغير شك، والذي يجلس هناك هولندي. لقد كان يقف أمامنا عند فحص جوازات السفر. ويخيل إليّ أنه ليس بين المسافرين أحد من الأمريكيين، ولكن ما هذا؟ لقد مر

على جلوسنا هنا أكثر من نصف ساعة فلِمَ كل هذا الانتظار؟

جاءها الجواب على الفور، فقد مر بهما رجل طويل القامة أشيب شعر الرأس والشاربين يحمل معطفه على ساعده ويضع على رأسه قبعة عريضة الحافة أشبه بقبعات أهل المكسيك ويحيط به عدد من موظفي شركة الطيران يحمل أحدهم حقيبتين ثمينتين. كان الرجل أشبه بالمغامرين الذين نراهم في الأفلام، وسمعت السيدة كليب الموظفين يتسابقون للرد على أسئلة الرجل: نعم يا سير روبرت، طبعاً يا سير روبرت، ستقلع الطائرة في الحال يا سير روبرت.

فهمست السيدة كليب: ترى من يكون هذا السير روبرت؟ لا بد أنه إحدى الشخصيات الهامة، هل هو أحد وزرائكم يا آنسة فكتوريا؟

- لا أظن ذلك يا سيدة كليب.

مهما يكن من أمر السير روبرت فإنه بغير شك إحدى الشخصيات الهامة، بدليل أن الطائرة كانت تنتظره، فلم يكد يصل حتى دُعي الركاب إلى الصعود. أقلعت الطائرة وانصرفت السيدة كليب إلى قراءة إحدى القصص وراحت فكتوريا تطل من النافذة، وأرخى السير روبرت قبعته على وجهه واستغرق في النوم. وعندما وصلت الطائرة إلى مطار كاستل بنيتو في طرابلس كانت الأمطار تهطل بشدة، وأقبل عدد من موظفي المطار لاستقبال السير روبرت ومرافقته إلى جناح فاخر في فندق المطار بينما قصد المسافرون إلى غرف أخرى بالفندق لقضاء ليلتهم. وقبل العشاء تخلفت فكتوريا قليلاً في غرفتها

لاستبدال ثوبها وتصفيف شعرها، وعندما لحقت بالسيدة كليب التي قضت وقتها في الثرثرة مع بعض المسافرين قالت لها هذه الأخيرة: لقد اكتشفت حقيقة هذا السيد الذي يحيطه موظفو شركة الطيران بكل الرعاية والاحترام، إنه السير روبرت كرفتون لي الرحالة المشهور، لا بد أنك قد سمعت عنه؟

فهزت فكتوريا رأسها علامة الإيجاب. كانت قد سمعت عنه حقاً ورأت صورته في بعض الصحف وقرأت أنه يعرف الصين من الداخل كما لا يعرفها أي إنسان آخر وأنه أحد الأوروبيين القلائل الذين ارتادوا التبت، وهو يعرف كردستان وآسيا الصغرى كأهلها، وقد وضع عدة كتب أعيد طبع بعضها أكثر من مرة. وكان رأي فكتوريا في الرجل أنه يبدو أقل أهمية من كتبه ولكنها لم تقل ذلك للسيدة كليب.

* * *

الفصل الثامن

كانت مكاتب شركة جراموفون فالهالا تقع في الطابق الخامس بإحدى العمارات الكبيرة بحي رجال الأعمال في لندن، وفي إحدى الغرف كان رجل يقرأ كتاباً في الاقتصاد السياسي حين دق جرس الهاتف، فتناول السماعة وقال بصوت هادئ: شركة جراموفون فالهالا.

- أنا ساندرز، لديّ تقرير عن «هـ ش». لقد فقدنا أثرها.

فساد صمت عميق ثم صاح رجل الشركة بصوت حاد: ماذا قلت؟

- قلت إننا فقدنا أثر هيلين شيل.

- لا تذكر أسماء! لقد ارتكبت خطأ جسيماً، كيف حدث ذلك؟

- ذهبنا إلى العيادة التي حدثتك عنها والتي أجريت فيها جراحة لأختها.

- ثم؟

- لقد نجحت الجراحة. وظننا أن هـ ش ستعود إلى فندق سافوي، ولكنها لم تبرح العيادة التي وضعناها تحت رقابة مشددة.

- لكنها مع ذلك بارحتها؟

- ذلك ما اكتشفناه فيما بعد. وقد ثبت لنا أنها غادرتها في إحدى سيارات الإسعاف غداة إجراء الجراحة.

- إذن فقد خدعتكم؟

- يخيّل إليّ ذلك. ولكني أستطيع أن أقسم أنها لم تكن تعلم أن أحداً يتعقبها، فقد عملنا بحذر وكنا ثلاثة أشخاص و...

- احتفظ بهذه التفصيلات لنفسك. إلى أين ذهبت سيارة الإسعاف بها؟

- إلى مستشفى الجامعة.

- وماذا قالوا في المستشفى؟

- قالوا إن سيارة الإسعاف حملت إليهم امرأة مريضة ومعها ممرضة هي بلا شك هـ ش، وإن الممرضة اختفت عقب تسليم المريضة ولا أحد يعلم أين ذهبت.

- وماذا قالت المريضة عنها؟

- لا شيء، لأنها كانت تحت تأثير المخدر.

- الخلاصة أن هـ ش يحتمل أن تكون في أي مكان؟

- نعم، ولكنها إذا عادت إلى فندق سافوي فإن...

- كفى سخفاً، إنها لن تعود إلى فندق سافوي.

- هل نبحث عنها في الفنادق الأخرى؟

- طبعاً، ولكن البحث لن يسفر عن نتيجة لأنها تعلم أن ذلك هو أول شيء ستفعلونه.

- إذن ما هي تعليماتكم؟

- ابحثوا عنها في الموانئ، في دوفر وفولكستون وغيرهما، وابحثوا في شركات الطيران وخاصة تلك التي تمر طائراتها ببغداد، وافحصوا سجلات الأشخاص الذين حجزوا أماكن للسفر خلال الأسبوعين القادمين، ولا تنسوا أن من المؤكد أنها سوف تسافر تحت اسم مستعار.

- حقائبها لا تزال في فندق سافوي، ومن المحتمل أن تطلب إرسالها إليها.

- لا آمل في ذلك. ربما كنتَ مغفلاً أما هي فإنها ليست كذلك. هل تعلم أختها شيئاً؟

- نحن على اتصال بالممرضة التي ترعاها في العيادة، وقد علمنا أن الأخت تعتقد أن هـ ش سافرت إلى باريس في مهمة خاصة بالسيد مورجنتال، كذلك تعتقد الأخت أن هـ ش ستعود إلى أمريكا في الثالث والعشرين من هذا الشهر.

- معنى ذلك أن هـ ش لم تقل شيئاً ولم تصارحها بشيء، ولا غرابة في ذلك. عليكم الآن أن تهتموا بشركات الطيران. إن هـ ش تزمع السفر إلى بغداد، ولكي تصل إليها في الوقت المناسب لا مفر لها من السفر بإحدى الطائرات. وفيما عدا ذلك يا ساندرز...

- نعم؟

- لا ترتكب غلطة أخرى، سنمنحك فرصة ثانية ولكنها ستكون الأخيرة.

* * *

الفصل التاسع

نظر ليونل شريفنهام، الملحق الشاب بالسفارة البريطانية، إلى الطائرة التي تحلق فوق المطار وارتسمت على وجهه دلائل القلق، فقد رأى سحابة رملية تتجمع في الجو وتنذر بعاصفة لم يتوقعها أحد. قال لصديقه الذي يقف بجواره: أراهن على أن هذه الطائرة لن تستطيع الهبوط.

قال صديقه هارولد: إذن ماذا سيفعل قائدها؟

- أعتقد أنه سيهبط في البصرة فالجو هناك أفضل.

- هل في الطائرة أحد يهمك أمره؟

تنهد شريفنهام وأجاب: أنا في مأزق لا أحسد عليه، فالسفير الجديد لم يصل بعد، والسيد لانسرون الذي يقوم بعمل السفير موجود الآن في إنجلترا، والسيد رايس مستشار السفارة لشؤون الشرق مصاب بحمة معوية ودرجة حرارته أربعون، أما السيد بيست فقد سافر إلى طهران، وهكذا لم يبق من المسؤولين لاستقبال الطائرة سواي. إن بالطائرة شخصاً لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه رحالة يقضي وقته على ظهور

الجمال في بلاد لم يسمع عنها أحد، ولكن يبدو أنه شخصية هامة، فقد صدرت إليّ الأوامر بأن أنزل على إرادته وألبي كل رغباته. فإذا هبطت الطائرة في البصرة فمن المؤكد أنه سيكون ضيق الصدر حانقاً حين يصل إلى هنا، ثم إنني لا أعرف ماذا ينبغي عمله إذا هبطت به الطائرة في البصرة. ربما كان أفضل الحلول أن أرسل إليه إحدى طائرات سلاح الطيران لإحضاره، ولكني أعلم أن هناك قطاراً يغادر البصرة مساء اليوم وربما كان صاحبنا يفضل أن...

لم يتم شريفنهام عبارته وتنهد مرة أخرى. لقد أمضى في بغداد ثلاثة شهور لازمه خلالها سوء الطالع حتى بات يشعر بأن أية غلطة جديدة قد تودي بمستقبله. أحس شريفنهام كأن عبئاً ثقيلاً أزيح عن صدره حين رأى الطائرة تهبط بسلام وتشق طريقها في الممر وتتوقف في المكان المخصص لها، وراح يراقب المسافرين وهم يغادرون الطائرة وسرعان ما عرف ضالته من قبعته الغريبة، فتقدم لاستقباله وبادره يقول: سير روبرت كروفتون لي فيما أعتقد؟ أنا شريفنهام من السفارة.

كان رد السير روبرت يفتقر إلى اللباقة، ولكن الشاب تجاوز عنه ورافق الضيف إلى السيارة التي كانت في الانتظار وركب معه وقال على سبيل جس النبض: لقد خيل إليّ في لحظة ما أن الطائرة لن تستطيع الهبوط وأنها قد تضطر لمواصلة الرحلة إلى البصرة، إن العاصفة الرملية...

فقاطعه السير روبرت بقوله: لو أن هذا قد حدث لكان كارثة بالنسبة لي. هل تعرف أيها الشاب أن أي تغيير يطرأ على

برنامجي قد يكون له من النتائج الخطيرة ما لا يستطع أحد تصوره؟

أدرك شريفنهام مدى غرور الرجل وصلفه ولكنه أجاب باحترام: أنا واثق من ذلك يا سيدي.

- هل تعرف متى سيصل السفير إلى بغداد؟

- إن موعد قدومه لم يحدد بعد.

- سوف يؤسفني ألا أراه. لقد قابلته لآخر مرة في الهند... وصمت قليلاً ثم سأل: ألا يزال رايس هنا؟

- نعم يا سيدي، إنه مستشار الشؤون الشرقية.

- إنه رجل له أهميته ويسعدني أن أقابله.

- مما يؤسفني يا سيدي أنه في المستشفى تحت الملاحظة، إذ يبدو أنه أصيب بحمى معوية وحالته تثير قلق الأطباء.

فتحول إليه السير روبرت بحدة وسأله: ومتى أدخل المستشفى؟

- أمس الأول.

فقطب السير روبرت حاجبيه وتلاشى صلفه وتمتم قائلاً: من يدري؟ فلعله أصيب بحمى شيل.

لم يكن شريفنهام قد سمع عن مرض بهذا الاسم فلزم الصمت. واقتربت السيارة من جسر الملك فيصل وانحرفت

يساراً في الطريق إلى مقر السفارة، وفجأة انحنى السير روبرت إلى الأمام وقال للسائق: هل لك أن تتوقف لحظة أمام هذا الحانوت؟

أطاع السائق وأوقف السيارة أمام حانوت صغير مليء بشتى أنواع الأواني الخزفية، وفي تلك اللحظة غادر الحانوت رجل أوروبي سار في الطريق إلى الجسر، وخيّل لشريفنهام أنه قد عرف فيه الكابتن كروسبي الموظف بشركة البترول، وكان شريفنهام قد التقى به مرة أو مرتين.

وثب السير روبرت من السيارة ودخل الحانوت، وتناول آنية ودار بينه وبين صاحب الحانوت حديث باللغة العربية. كانا يتكلمان بسرعة فلم يفهم شريفنهام من حديثهما أي شيء لأن معرفته بهذه اللغة محدودة. وراح السير روبرت يفحص الأواني ويلقي بعض الأسئلة وصاحب الحانوت يجيبه بسيل من الكلمات، وأخيراً وقع اختيار السير روبرت على آنية صغيرة ذات عنق طويل ضيق فوضع قطعة من النقود في يد صاحب الحانوت وعاد إلى السيارة.

قال يحدث شريفنهام: هذه الأواني الخزفية تُصنع بنفس الطريقة منذ آلاف السنين، وقد رأيت مثيلاتها في بعض المناطق الجبلية في أرمينيا. ووضع إصبعه في عنق الآنية وهو يتكلم فقال شريفنهام: إنها بدائية الصنع.

- أوافقك على أنها لا قيمة لها من الناحية الفنية، لكني أحتفظ بمجموعة ضخمة من الأواني الخزفية.

وصلت السيارة إلى السفارة فطلب السير روبرت اقتياده إلى غرفته فوراً، ولاحظ شريفنهام أن اهتمام ضيفه بالآنية قد فتر بمجرد فراغه من الحديث عنها حتى أنه نسيها في السيارة، ورأى شريفنهام من واجبه أن يحملها إليه. شكره السير روبرت بلهجة الشخص الذي يفكر في شيء آخر، وما أن انصرف شريفنهام حتى اقترب السير روبرت من نافذة غرفته وبسط الورقة التي أخرجها بإصبعه من عنق الآنية. كانت رسالة تتألف من سطرين، فقرأها ثم أحرقها ودق الجرس، وقال للخادم الذي أقبل: هل لك أن تطلب إلى السيد شريفنهام أن يأتي لمقابلتي؟

جاء شريفنهام فقال له: لقد طرأ على برنامجي تعديل هام، فهل أستطيع الاعتماد على كتمانك؟

- بغير شك يا سيدي.

- حسناً. أنا لم أقم بزيارة بغداد منذ بضعة أعوام، وبالتحديد منذ نهاية الحرب، فهل لا تزال الفنادق على الضفة الأخرى للنهر؟

- نعم يا سيدي، في شارع الرشيد.

- على امتداد دجلة؟

- نعم، وأكبر هذه الفنادق هو فندق بابل الذي تنزل فيه الشخصيات الرسمية.

- هل تعرف فندقاً يسمى فندق تيو؟

- نعم، إن زبائنه كثيرون وطعامه جيد، وصاحبه المدعو

ماركوس تيو رجل عجيب يعد من معالم بغداد.

- حسناً، أريدك أن تحجز لي غرفة في فندق تيو.

دهش شريفنهام وظن أنه لم يسمع جيداً، وقال بلسان يتلعثم: هل تعني أنك لن تقيم في السفارة؟ لقد اتخذنا جميع الإجراءات لتوفير أسباب الراحة.

فقاطعه السير روبرت: أعلم ذلك، ولكن يجب أن أقوم بمفاوضات سرية على جانب عظيم من الأهمية والخطورة، وقد علمت للتو واللحظة أنني لن أستطيع إنجاز هذه المفاوضات في دار السفارة ولذلك أريدك أن تحجز لي غرفة في فندق تيو. وسأغادر السفارة سراً، أي أنني لن أكون بحاجة إلى سيارة السفارة لتذهب بي إلى فندق تيو، ثم إنني أريد أن تحجزوا لي مكاناً على الطائرة التي ستقلع إلى القاهرة بعد غد.

- لكني كنت أعلم أنك ستقضي في بغداد خمسة أيام.

- قلت لك إن برنامجي قد تغير ولا بد لي أن أبرح بغداد إلى القاهرة عقب الفراغ من مهمتي هنا. إن بقائي في بغداد سيكون خطراً عليّ.

- خطراً عليك؟

ارتسمت على شفتي السير روبرت ابتسامة رقيقة أذهلت شريفنهام. لقد تغير الرجل فجأة فلم يعد ذلك الإنسان المتعجرف الذي ذكّره حين رآه في المطار بعجرفة الضباط الألمان. واستطرد السير روبرت قائلاً: إنني في العادة لا أحفل

بسلامتي الشخصية، ولكن الأمر في هذه المرة لا يتعلق بي وحدي، إنه يمس أشخاصاً عديدين، ولذلك أرجوك أن تعمل على تنفيذ تعليماتي. أما أنا فلن أغادر السفارة قبل المساء وسأبقى في غرفتي لا أبرحها حتى ذلك الوقت.

ولشد ما كانت دهشة شريفنهام حين أردف السير روبرت قائلاً: أنا رسمياً مريض بالملاريا ولذلك لن أتناول طعاماً.

- لكننا نستطيع أن نقدم لك الطعام في غرفتك.

- لا ضرورة لذلك، إن الصوم أربعاً وعشرين ساعة لن يقتلني، فافعل كما قلت لك.

* * *

الفصل العاشر

كان أولى انطباعات فكتوريا لدى وصولها إلى بغداد هو الإحساس بخيبة الأمل، فهي لم تر وهي في طريقها إلى فندق تيو سوى الرمال المحرقة والجو الخانق والشوارع المكتظة. وقد حرص ماركوس تيو صاحب الفندق على أن يستقبل السيدة كليب بنفسه. كان لا يزال في مقتبل العمر ولكنه ضخم الجسم مترهل الجسد، وقد هتف حالما وقع بصره عليها: طاب صباحك يا سيدة كليب، كم نحن سعداء بلقائك ولكن ماذا أصاب ذراعك؟ أنت جئت في يوم عاصف وقد خشيت ألا تتمكن الطائرة من الهبوط. لقد صح عزمي أكثر من ذي قبل على ألا أسافر بالطائرات... لماذا العجلة؟ إن بضع ساعات أو بضعة أيام لا تقدم ولا تؤخر. آه، أرى أنك قد أحضرت معك شابة جميلة! نحن هنا في بغداد نرحب دائماً بالحسناوات اللاتي لم يسبق لنا رؤيتهن. هل تسمحان بأن أقدم لكما شيئاً؟

تحت إلحاح ماركوس وافقت فكتوريا على أن تتناول كوباً من العصير، ثم صعدت إلى غرفتها. ولاحظت حين نظرت إلى نفسها في المرآة أن شعرها قد تغير لونه بفعل ذرات الرمل الناعم التي تخللته، ولكنها وجدت نفسها في المساء أفضل

حالاً وأكثر نشاطاً بعد أن اغتسلت واستبدلت ثيابها وتناولت غذاء شهياً وغفت في فراشها في فترة الظهيرة. كانت العاصفة الرملية قد هدأت فخرجت إلى شرفة غرفتها ورأت نهر دجلة يسبح في ضوء القمر، وعلى ضفته الأخرى على امتداد البصر كانت بعض بيوت بين أشجار نخيل لا حصر لها. وتنبهت فكتوريا فجأة إلى حديث يدور بين شخصين في حديقة الفندق تحت شرفتها مباشرة فأرهفت أذنيها. لكن مع من تتحدث هذه السيدة الثرثارة؟

وأطلت برأسها من فوق حاجز الشرفة فرأت السيدة كليب تجالس سيدة إنجليزية من ذلك الطراز الفضولي الذي يصادفه الإنسان كثيراً في رحلاته بالخارج. كانت السيدة كليب تقول: لا أعلم ماذا كنت سأفعل بدونها، إنها أظرف فتاة قابلتها في حياتي، ثم إنها تنتمي إلى أسرة كريمة، فهي ابنة أخ أسقف لانجو.

- أسقف ماذا؟

- لانجو، أظن أن هذا هو الاسم الذي ذكرته.

- لا يوجد أساقفة بهذا الاسم.

قطبت فكتوريا حاجبيها. يبدو أن هذه السيدة ليست ممن يمكن خداعهم بسهولة.

قالت السيدة كليب: ربما سمعت الاسم خطأ، مهما يكن من أمر فإنها فتاة ظريفة مهذبة.

- أحقاً؟

يبدو أن السيدة لم تقتنع، فقررت فيكتوريا أن تتجنبها بقدر الاستطاعة. واستلقت في فراشها وراحت تستعرض موقفها. إنها الآن في فندق تيو وواضح أنه من فنادق الدرجة الأولى، بينما كل ما تملكه لا يتجاوز أربعة جنيهات وسبعة عشر شلناً. لقد تناولت طعاماً شهياً، ومن المحقق أن السيدة كليب لن تدفع ثمن الطعام لأن مسؤوليتها حيالها قد انتهت بوصولها إلى بغداد. إنها لم تعد الآن في خدمة السيدة كليب التي ستسافر بقطار الليل إلى كركوك، ترى هل ستقدم لها السيدة كليب منحة عند رحيلها؟ ربما، ولكن ليس هذا مؤكداً، خاصة وأن هذه السيدة الطيبة القلب لا تعرف شيئاً عن أزمتها المالية. لم يبق سوى شخص واحد تستطيع الاعتماد عليه، ذلك الشخص هو إدوارد، ولكن أين ستجده وكيف تستفسر عنه؟ اكتشفت فكتوريا فجأة أنها لا تعرف لقبه، ولكن من حسن الحظ أنها تعلم أنه يعمل سكرتيراً للدكتور راتبون، والدكتور راتبون شخصيته معروفة دون شك.

صففت فكتوريا شعرها وأصلحت من زينتها وهبطت إلى بهو الفندق فاستقبلها ماركوس بابتسامة عريضة. هتف حالما رآها مقبلة: آنسة جونز! كم يسعدني أن أراك، وسأكون سعيداً إذا وافقت على تناول شيء معي. إنني أعبد صديقاتي الإنجليزيات في بغداد، هلمي بنا إلى المطعم. ولم تعارض فكتوريا، وما أن جلست وأمامها بعض الطعام حتى شرعت في الاستفسار عما يهمها معرفته، سألته: هل تعرف شخصاً يدعى الدكتور راتبون وصل إلى بغداد مؤخراً؟

- إنني أعرف كل الناس في بغداد وكل الناس يعرفونني والجميع أصدقائي.

- أنا واثقة من ذلك، ولكن هل تعرف الدكتور راتبون؟

- في الأسبوع الماضي جاءني القائد الأعلى لسلاح الطيران في الشرق الأوسط، ولم أكن قد رأيته منذ ثلاثة أعوام فقال لي إنني أصبحت بديناً. آه، لكم أحب هذا الرجل! إنه ظريف حقاً.

- والدكتور راتبون، أهو ظريف أيضاً؟

- أنا أحب أن أرى وجوهاً باسمة وأحب الشباب المرح الظريف الذين على شاكلتك.

- والدكتور راتبون؟

- السيدة كليب أمريكية. إن بين الأمريكيين أشخاصاً ظرفاء إلى أقصى حد. إليك مثلاً السيد سومرز، إنه يأتي إلى بغداد فيقضي اليوم الأول في الشراب ويلزم فراشه طوال الأيام الثلاثة التالية، وفي رأيي أن ذلك إسرافاً.

- أريد منك خدمة يا سيد تيو.

أبرقت أسارير ماركوس وقال: هذا كل ما أتمنى، قولي ماذا تريدين فأعمل على تنفيذه فوراً.

- أريد مقابلة الدكتور راتبون. لقد جاء إلى بغداد منذ بضعة أيام ومعه... ومعه سكرتير.

- راتبون؟ أنا لا أعرفه فهو ليس من عملاء فندق تيو.

كانت لهجة الرجل صريحة الدلالة على أنه لا يعترف

بوجود شخص ليس من عملاء الفندق، فسألته فكتوريا: هل توجد فنادق أخرى؟

– طبعاً، يوجد فندق بابل بالاس وفندق سنحريب وفندق زبيدة، جميعها فنادق الدرجة الأولى ولكنها لا تضارع فندق تيو.

– هذا أمر مؤكد، ولكن ألا تعلم ما إذا كان الدكتور راتبون ينزل في أحد الفنادق؟ إنه يدير معهداً أو جمعية ثقافية.

– هذا شيء جميل، فنحن جميعاً بحاجة إلى الثقافة وخاصة الثقافة الموسيقية، وفيما يختص بي فإنني أعبد السيمفونيات وخاصة القصيرة منها.

أدركت فكتوريا أنها تضيع وقتها عبثاً. صحيح أن الرجل لبق ولكن أحاديثه مهما تشعبت تلتقي كلها عند نقطة واحدة هي ماركوس نفسه. غادرت صالة الفندق وقصدت إلى الشرفة فاستندت عليها وراحت تتأمل النهر، وما هي إلا لحظة حتى سمعت خلفها صوتاً يقول: معذرة يا آنسة، ولكن يجب أن ترتدي شيئاً يقيك من البرد. نحن لسنا في إنجلترا والجو هنا حار وخانق نهاراً ولكنه شديد البرودة حالما تغيب الشمس.

استدارت فكتوريا فوجدت نفسها وجهاً لوجه مع السيدة التي كانت تتحدث مع السيدة كليب تحت شرفتها. كانت جالسة على مقعد وثير وعلى ركبتيها غطاء وحول عنقها كوفية من الفرو. قالت فكتوريا: شكراً لك.

وهمت بدخول الفندق، ولكن يبدو أن السيدة كانت

مصممة على التحدث إليها. قالت: يبدو أنني لم أقدم نفسي. أنا السيدة كارديو ترينش.

كان واضحاً من صوتها ولهجتها أن لأسرة كارديو ترينش مكانة مرموقة. واستطردت السيدة قائلة: أعتقد أنك جئت إلى بغداد مع تلك السيدة الأمريكية السيدة هاملتون كليب؟

- نعم.

- لقد قالت لي إنك ابنة أخ أسقف لانجو؟

- هل قالت لك ذلك؟

وابتسمت ابتسامة ذات مغزى فقالت السيدة: لقد أخطأت بغير شك.

- الواقع أن الأمريكيين كثيراً ما يخلطون بين الأسماء، إن اسم لانجو قريب الشبه من لانجاو. عمي هو أسقف لانجاو.

- لانجاو؟

- نعم، إنها جزيرة صغيرة في المحيط الهادي.

- آه.

لم تكن السيدة كارديو ترينش قد سمعت عن جزيرة بهذا الاسم ولكنها قالت: هذا يوضح الحقيقة، ولكن ماذا تفعلين في بغداد؟

تحرجت فيكتوريا من أن تقول إنها جاءت للبحث عن شاب دار بينها وبينه حديث في إحدى الحدائق العامة بلندن، ولكن من حسن الحظ أنها كانت قوية الذاكرة فقالت: لقد

جئت للحاق بعمي الدكتور بونسفوت جونز.

- إنه رجل ظريف ولكنه سريع النسيان. لقد سمعت إحدى محاضراته في لندن العام الماضي، وأقول لك الحق لم أفهم منها كلمة واحدة. الواقع أنه قد مرّ ببغداد منذ أسبوعين، وأعتقد أنه قال شيئاً عن فتيات سوف يلحق به.

أحست فكتوريا بأن مركزها قد توطد فسألت: ألا تعلمين إذا كان الدكتور راتبون موجود في بغداد أم لا؟

- أعتقد أنني قرأت أخيراً أنه سوف يلقي محاضرة بالمعهد يوم الخميس القادم موضوعها: «الإخاء في العلاقات الدولية». وإذا أردت رأيي فإنني أعتقد أنه يعيش في الخيال لأن محاولة التقريب بين الشعوب لا تسفر عادة إلاّ عن تباعدها، ولست أرى أية فائدة من إقدام الدكتور راتبون على ترجمة مؤلفات شكسبير أو ميلتون إلى العربية والصينية والهندوستانية.

- هل تعلمين أين يقيم؟

- أظن أنه يقيم في فندق بابل بالاس، ولكن مقر عمله في«غصن الزيتون» بالقرب من المتحف على بعد خطوات من سوق النحاس.«غصن الزيتون»... اسم مضحك لمعهد يبعث على الضحك، معهد تتردد عليه فتيات بنظارات سميكة يرتدين ملابس بالية ولا يغسلن أعناقهن.

- أنا أعرف سكرتيره.

- آه، ذلك الشاب الوسيم. ماذا كان اسمه؟ إدوارد،

نعم، فهو يدعى إدوارد وهو شاب ظريف ظلموه في بيئة المثقفين التي لا ينتمي إليها من قريب أو بعيد، وقد قال إنه أبلى بلاء جيداً في الحرب، ولكن يبدو أنه في حاجة إلى هذه الوظيفة. إن جميع الفتيات مفتونات به! وبهذه المناسبة: كيف حال السيدة بونسفوت جونز؟ لقد قيل لي إنها كانت مريضة جداً.

وجدت فكتوريا بعد أن عرفت ما كانت تريد معرفته أن من الحماقة أن تتورط في أكاذيب جديدة، فألقت نظرة على ساعتها وصاحت: يا إلهي! الساعة الآن السادسة والنصف والسيدة كليب تنتظرني لكي أساعدها في ارتداء ثيابها، يجب أن أذهب.

كانت السيدة كليب تنتظرها حقاً، فانطلقت إلى غرفتها وهي تكاد تطير فرحاً. سوف ترى إدوارد غداً، أما أولئك الفتيات المفتونات به فإنها لا تقيم لهن وزناً. بحسبها أن تلتقي بإدوارد فتستقيم الأمور.

مرت الساعات التالية بسرعة، وتناولت طعام العشاء مع السيدة كليب ثم رافقتها إلى المحطة حيث أجلستها في القطار المسافر إلى كركوك وأوصت بها بعض المسافرات، وعندما بدأ القطار يتحرك قالت السيدة كليب وهي تضع في يد فكتوريا مظروفاً صغيراً: هذه هدية صغيرة للذكرى، فتقبليها يا آنسة جونز مع وافر شكري.

- كم أنت لطيفة يا سيدة كليب! ما كان يجب أن تفعلي ذلك.

ثم استقلت إحدى سيارات الأجرة إلى الفندق وأسرعت إلى غرفتها وفضت المظروف وأصابعها ترتجف فوجدت فيه جورباً من النايلون. كان يمكن في ظروف أخرى أن ترحب بهذه الهدية فإن دخلها لم يسمح لها قط بأن تبتاع جورباً من النايلون، ولكنها كانت تأمل في شيء آخر. بعض النقود في ظروفها الحالية كانت أفضل ألف مرة من الجوارب. مما يؤسف له أن رقة السيدة كليب وكياستها منعتها من أن تقدم لها ورقة مالية ذات خمسة دنانير أو أكثر. مهما يكن من أمر فالأمور ستكون أفضل غداً حين تلتقي بإدوارد.

بهذا الأمل أوت فكتوريا إلى فراشها، وبعد خمس دقائق كانت تغط في النوم.

* * *

الفصل الحادي عشر

كانت الشمس قد أشرقت منذ ساعة حيت استيقظت فكتوريا وارتدت ثيابها وأطلت من شرفتها، ولشد ما كانت دهشتها حيت رأت رجلاً أشيب الشعر يجلس في الحديقة وظهره نحوها، فقد عرفت في الرجل السير روبرت كروفتون لي. لم يخطر ببالها قط أن رجلاً ذا شخصية بارزة يمكن أن يقيم في مكان آخر غير السفارة. كانت عيناه تنظران نحو الحقول البعيدة، ولاحظت أن منظاراً مكبراً يتدلى من مسند مقعده. واستنتجت من وجود المنظار أنه ربما يرقب الطيور وهي تحلق في السماء، فقد عرفت في إنجلترا شاباً كانت له مثل هذه الهواية.

غادرت فكتوريا غرفتها وهبطت إلى الشرفة التي تصل بين جناحي الفندق فقابلت هناك ماركوس تيو. سألته: هل يقيم كروفتون لي في هذا الفندق؟ لقد خيّل لي أنني...

- نعم، إنه يقيم هنا. إنه رجل ظريف.

- هل تعرفه جيداً؟

- طبعاً.

قالت فكتوريا لنفسها: يبدو أن جميع الناس في نظر ماركوس تيو ظرفاء.

وتناولت إفطارها وقررت أن تنطلق للبحث عن«غصن الزيتون». إن المتحف الذي تحدثت عنه السيدة كارديو ترينش لا يمكن أن يكون بعيداً. واتفق أنها قابلت ماركوس مرة أخرى وهي تهم بالانصراف فسألته عن المتحف فأجاب: المتحف؟ إنه عظيم ومليء بالآثار القديمة الرائعة، إنني لم أذهب إليه قط ولكن أصدقائي علماء الآثار يقضون طوال يومهم هناك كلما قدموا إلى بغداد.

- ولكن أين موقعه؟

- سيري في شارع الرشيد حتى تصلي إلى جسر الملك فيصل واعبريه، ثم اجتازي شارع البنوك واعبري جسراً صغيراً هناك. إن المتحف في شارع ضيق إلى يسار الجسر، اطلبي هناك السيد بيتون إيفانز أمين المتحف، إنه رجل ظريف له زوجة رائعة جاءت معه إبان الحرب.

- الواقع أنني لا أريد زيارة المتحف ذاته ولكني أبحث عن مقر جمعية أو معهد يقال له «غصن الزيتون»، فهل تعرفه؟

- كلا، وعلى كل حال فإن المتحف بعيد ويجب أن تستقلي إحدى سيارات الأجرة.

- هل يستطيع السائق أن يذهب إلى «غصن الزيتون»؟

- كلا بغير شك، إن السائقين هنا لا يعرفون شيئاً على

الإطلاق، وإذا أراد الإنسان الذهاب إلى مكان فعليه أن يرشد السائق.

- لعل من الأفضل أن أذهب سيراً على قدميّ.

بدأت فكتوريا رحلتها. وما لبثت أن اكتشفت أن المدينة تختلف كل الاختلاف عما تخيلتها، فحركة المرور كثيفة وأبواق السيارات لا تكف عن الضجيج والمتاجر مكدسة بالبضائع المستوردة. اجتازت جسر الملك فيصل وواصلت سيرها فوجدت نفسها دون أن تشعر أو تستفسر أمام المبنى، ولكن أين معهد «غصن الزيتون»؟ ولما كانت تجهل اللغة العربية فإن الأسئلة التي ألقتها على التجار بقيت بغير جواب، أما رجال شرطة المرور فكانوا منهمكين في عملهم فلم تتح لها فرصة للتفاهم معهم.

وأخيراً سارت كيفما اتفق، وقادتها الصدفة وحدها إلى شارع ضيق تنبعث منه ضجة شديدة، ووجدت فجأة أنها في سوق النحاس التي حدثته عنها السيدة كارديو ترينش. أثارت عملية طرق النحاس وتصنيعه وزخرفته فضولها فقضت هناك نحو ساعة نسيت خلالها كل شيء عن «غصن الزيتون»، وأحست بأنها في بلاد الشرق حقاً. وعندما غادرت السوق وخرجت من الزقاق الذي يضم النحاسين وجدت نفسها بغتة أمام مبنى على بابه لافتة تحمل اسم «غصن الزيتون». اجتازت دهليزاً ينتهي بقاعة فسيحة وجدت بها بضعة مقاعد ومائدتين أو ثلاثاً عليها كتب ومجلات، ولما ألفت عيناها النور الخافت الذي يضيء الغرفة تبينت خزائن الكتب التي تغطي الجدران

ورأت فتاة تقبل عليها وتسألها عما في استطاعتها أن تفعله من أجلها. كانت الفتاة ترتدي بنطلوناً وقميصاً جميلاً برتقالي اللون، وقد أدركت فكتوريا حين رأت قسمات وجهها وشعرها الناعم أنها لا بد أن تكون من أهل الشرق. سألتها: هل هذا هو مقر الدكتور راتبون؟

- نعم، هنا معهد «غصن الزيتون». هل تريدين الانضمام إليه؟

- ربما فيما بعد، أما الآن فإنني أريد مقابلة الدكتور راتبون.

ابتسمت الفتاة ابتسامة غامضة وأجابت: إننا لا نستطيع إزعاجه، ولكنني على استعداد لأن أقدم إليك كافة الإرشادات. ها هي استمارة العضوية فاملئيها ووقعي عليها بإمضائك. أما رسم الاشتراك فهو ديناران.

قالت فكتوريا إنها ستفكر في الموضوع، وهي تريد أن تقابل الدكتور راتبون أو سكرتيره.

أجابتها الفتاة: ولكن ذلك مستحيل الآن، لقد قلت لك إن...

- وما وجه الاستحالة؟ هل السكرتير غير موجود؟ وكذلك الدكتور راتبون؟

- الدكتور موجود بالطابق الأول ولكنه أمرنا بألا نزعجه.

- إنني قادمة للتو من إنجلترا ومعي رسالة للدكتور راتبون على جانب عظيم من الأهمية، ولذلك يجب أن أقابله شخصياً وفوراً. يؤسفني أن أضايقك ولكن لا بد مما ليس منه بد.

لاحظت الفتاة إصرارها فقالت: حسناً، اتبعيني.

قادتها إلى الطابق الأول حيث وجدت الدكتور راتبون. كان رجلاً قصير القامة أشيب الشعر يناهز الستين من عمره، وقد نهض لاستقبال الزائرة التي قيل له إنها قادمة من إنجلترا. بسط لها يديه مرحباً وقال وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة: هل أنت قادمة من إنجلترا؟ لا شك أن هذه أول رحلة لك في بلاد الشرق.

- إنها كذلك.

- يهمني أن أعرف انطباعاتك عن هذه البلاد. ولكن حدثيني أولاً، هل تقابلنا قبل الآن؟

- كلا، ولكني صديقة لإدوارد.

- صديقة لإدوارد؟ وهل يعلم أنك في بغداد؟

- كلا.

- إذن فستكون مفاجأة له عندما يحضر.

- عندما يحضر؟

- نعم، إنه الآن في البصرة للتفاهم مع رجال الجمارك بشأن شحنة كتب وردت إلينا من إنجلترا.

- ومتى سيعود إلى بغداد؟

- لا أعلم. من المؤكد أنه لن يعود قبل الانتهاء من مهمته. اذكري لي عنوانك وسوف نخبره حالما يحضر.

تذكرت أزمتها المالية وحرج مركزها فقالت بعد تردد: هل يمكن أن أجد لي عملاً عندكم هنا؟

- دون شك، إننا بحاجة إلى جميع ذوي النيات الطيبة ونرحب بالإنجليزيات بصفة خاصة. يوجد نحو ثلاثين شاباً وفتاة يعملون معنا الآن ولكني واثق من أنك ستفيدينا كثيراً.

- الواقع أنني أطلب عملاً بأجر.

قال الدكتور راتبون وقد فترت حماسته فجأة: هذا أمر آخر. إن العمل بأجر يبدو عسيراً في الوقت الحاضر، خاصة وأن ميزانيتنا لا تكاد تغطي مرتبات موظفينا القلائل.

- من سوء الحظ أن مركزي لا يسمح لي بالعمل حباً في العمل. واحمرّ وجهها وهي تستطرد قائلة: إنني أجيد الاختزال والعمل على الآلة الكاتبة.

- أنا واثق من ذلك أيتها البنية العزيزة، ولكن العقبة في الميزانية. غير أنني أرجو إذا استطعت العثور على عمل آخر أن تكرسي بعض أوقات فراغك للتعاون معنا. إننا نؤدي هنا عملاً جليلاً يهدف إلى القضاء على الحروب وإزالة أسباب البغض والجفاء التي تمزق العالم، وذلك بالتقريب بين الشعوب عن طريق الفن والثقافة والشعر.

واشتدت حماسة الدكتور راتبون ومضى يقول: لقد ترجمت مسرحية شكسبير «حلم ليلة صيف» إلى أربعين لغة، فأتيحت بذلك لشباب أربعين دولة فرصة الاستمتاع بهذه التحفة الأدبية الرائعة. إن جل اعتمادنا على الشباب فهم أقدر على

الفهم والتفاهم. إليك مثلاً الفتاة التي استقبلتك في المكتبة، إنها سورية من دمشق وتدعى كاترين، وهي في مثل سنك تقريباً، وقد لا تكون بينك وبينها أية صفة مشتركة ولكنكما مع ذلك تقابلتما هنا. إن «غصن الزيتون» مباح للجميع، وبين أعضائه شباب من روسيا والعراق وتركيا ومصر وأرمينيا وإيران. جميعهم يقرؤون نفس الكتب ويتبادلون وجهات النظر ويكتشفون حقائق الحياة.

كان لفكتوريا رأي آخر في فتيات «غصن الزيتون» اللاتي يتهالكن على إدوارد، أما كاترين بالذات فإنها لم تكن تتمنى أن تنشأ بينهما أية صداقة. مضى الدكتور راتبون في حديثه وقال: إن إدوارد شاب رائع وله قدرة عجيبة على التفاهم مع الفتيات... وابتسم الدكتور وتابع حديثه: إنما أردت بكل هذا أن أقول لك إننا سنكون سعداء إذا عملت معنا.

قال ذلك وبسط لها يده فأدركت أن المقابلة قد انتهت وشدت على يده وانصرفت، ومرت في طريقها بكاترين وكانت تتحدث مع فتاة أخرى خيّل لفكتوريا إنها رأتها قبلاً في مكان ما، وكان حديثهما بلغة عربية لم تفهم منها فكتوريا كلمة واحدة، كما أنهما كفّتا عن الكلام حين أبصرتا بها.

سارت فكتوريا في طريقها إلى الفندق، وحاولت أن تتناسى دقة مركزها كفتاة وحيدة وبلا نقود في بلد غريب بالتفكير في أمر الدكتور راتبون ومعهد «غصن الزيتون». لقد قال لها إدوارد في لندن إنه في عمل يثير الريبة، فهل كان يعني بذلك الدكتور راتبون أم «غصن الزيتون»؟ كان رأيها الشخصي

في الدكتور راتبون أنه عالم مجنون يعيش في حلم مستحيل التحقيق، ولكنه لا يمكن أن يكون محتالاً أو... صحيح أنها لاحظت أن موقفه مثلاً قد تغير حين قالت إنها تريد عملاً بأجر، ولكن ذلك دليل على أنه رجل منطقي متزن التفكير، فهناك أشخاص يضايقهم أن يدفعوا أجراً للذين يعملون معهم، وقد قابلت فكتوريا كثيرين من هذا الطراز ومنهم على سبيل المثال جرينهولز.

* * *

الفصل الثاني عشر

عادت فكتوريا إلى الفندق متعبة مورمة القدمين، ورآها ماركوس من بعيد فدعاها إلى الجلوس وقدمها إلى رجل كان يجالسه ويدل مظهره على عدم عنايته بهندام وقال: دعيني أقدمك إلى السيد داكن. هذه هي الآنسة جونز التي جاءت أخيراً من إنجلترا يا سيد داكن، ماذا تتناولين يا آنسة جونز؟

طلبت كأساً من عصير الليمون. ولمح ماركوس السيدة كارديو ترينش فدعاها للانضمام إليهم وقال لها: لا شك أنك تعرفين السيد داكن؟ هل تسمحين لي بأن أقدم لك شراباً؟

فأجابت السيدة: لا بأس بكأس من عصير البرتقال. وحيت داكن بإحناء رأسها وقالت تحدث فكتوريا: يخيّل إليّ أنك متعبة، هل ذهبت إلى مكان ما؟

– لقد قمت بنزهة في السوق. توجد هنا أشياء كثيرة تستحق أن يراها الأجانب.

وجاءهم الخدم بالشراب، وما هي إلا لحظة حتى قدم زائر جديد قدمه ماركوس باسم الكابتن كروسبي. وسألها هذا الأخير: هل قدمت منذ فترة طويلة؟

- منذ أمس.

- هذا ما ظننته، فأنا لم أرك هنا قبل اليوم.

قال ماركوس وهو يبتسم: إنها جميلة، أليس كذلك؟ إنني أفكر في إقامة مأدبة عشاء تكريماً لها.

قالت السيدة ترينش تحدث كروسبي: كنت أظن أنك في البصرة.

- لقد عدت منها أمس.

ورفع بصره إلى إحدى شرفات الفندق وقال: من هذا السيد الأنيق الذي يجلس في الشرفة ويضع على رأسه قبعة عريضة كقبعات أهل المكسيك؟

أجاب ماركوس: إنه السير روبرت كروفتون لي. إنه رجل ظريف ورحالة مشهور يقضي جل وقته في ارتياد الصحاري على ظهور الجمال.

- لقد سمعت عنه وقرأت أحد كتبه.

قالت فكتوريا: لقد وصلت معه في نفس الطائرة. ثم استطردت قائلة بقلة اكتراث: لكن يخيّل لي أن شيئاً فيه قد تغير.

وشعرت بكثير من الخيلاء لأن داكن وكروسبي لم يحولا أنظارهما عنها، وبعد قليل استأذنت فكتوريا في الانصراف وصعدت إلى غرفتها وهناك تمددت على فراشها وراحت تفكر. إن ثروتها لم تعد تتجاوز ثلاثة جنيهات، وهي الآن تدين للفندق بأكثر من هذا المبلغ، وإذا لم يكن ماركوس

قد طالبها بشيء حتى الآن فمن المؤكد أنه سيقدم لها فاتورة الحساب بعد يومين أو ثلاثة أو في نهاية الأسبوع على الأكثر، أفلا يحسن بها أن تبادر الآن إلى البحث عن فندق رخيص؟ إن كل آمالها تتركز الآن في إدوارد، ولكن متى سيعود إدوارد من البصرة وهل سيذكرها متى عاد؟ ثم من يكون إدوارد هذا؟ إنها لا تعرف حتى كنيته. لقد ارتكبت خطأً جسيماً حين قررت القدوم إلى بغداد، وها هي الآن بلا مال أو عمل وليس هناك من تستطيع الالتجاء إليه في طلب النصيحة. إن ماركوس رجل طيب ولكنه لا يصغي إلى محدثه، والسيدة ترينش سيدة محترمة ولكن يبدو من سلوكها أنها لا تثق بأحد. أما الدكتور راتبون فإنه لا يتهم بأمرها أبداً. كانت لا تزال تفكر في أمرها حين غلبها النعاس فاستغرقت في النوم.

وفي هذه الأثناء كان كروسبي وداكن يتجاذبان أطراف الحديث بعد أن انصرف ماركوس والسيدة ترينش. قال الأول في همس: ما رأيك في الفتاة؟

- يبدو أنها ابنة أخ بونسفوت عالم الآثار.

- لكنها قدمت على نفس الطائرة مع كروفتون لي؟

- لهذا يجب أن نتحرى عنها.

قال ذلك ثم نظر إلى ساعته وتابع قائلاً: سأذهب لمقابلة كروفتون لي.

فُتح باب غرفة السير روبرت قبل أن يقرعه داكن، ولم يكن بالغرفة سوى مصباح صغير على مقربة من المقعد الذي

كان يجلس عليه السير روبرت قبل أن ينهض لاستقبال ضيفه. وضع السير روبرت المسدس الذي كان بيده على المائدة وقال وهو يجلس: هل تظن أنه سيأتي يا داكن؟

- أعتقد ذلك يا سير روبر

ت، ألم يسبق لك أن قابلته؟

- كلا، ولكن سوف يسعدني أن أتعرف بشاب ذكي وشجاع مثله. هل اتخذت جميع الاحتياطات اللازمة؟

- نعم، إن كروسبي في الشرفة، أما أنا فسأمكث في الدهليز لمراقبة الدرج. ومتى جاء كارمايكل إلى غرفتك فاطرق الباب ثلاث مرات فأنضم إليكما.

- سأفعل ذلك.

غادر داكن الغرفة في هدوء كما دخلها.

* * *

الفصل الثالث عشر

كانت فكتوريا قد عقدت عزمها على أن تنام ملء جفنيها وتنسى همومها جميعاً حتى صباح اليوم التالي، ولكنها كانت قد قضت وقتاً طويلاً في فراشها بعد الظهر فاستيقظت بعد نحو ساعة، وعبثاً حاولت التغلب على الأرق الذي استولى عليها، وأخيراً أضاءت النور وقررت أن تمضي في قراءة قصة كانت قد بدأتها في الطائرة. وفرغت من قراءة القصة وأخذت تشغل نفسها بتجربة جورب النايلون الذي أهدتها إياه السيدة كليب ثم شرعت في تحضير بعض الرسائل لطلب وظيفة.

وبعد قليل تثاءبت وأحست بالخمول فأوت إلى فراشها، ولكنها ما كادت تفعل ذلك حتى فتح باب غرفتها فجأة ودخل منه رجل استدار إلى الباب وأغلقه بالمفتاح وهتف بصوت مرتجف: اخفيني بالله عليك وأسرعي!

كانت فكتوريا دائماً سريعة الخاطر، وبنظرة واحدة سجل ذهنها الحقائق التالية: إن الرجل يلهث وصوته لا يكاد يسمع، إن يده التي تضم الحقيبة فوق صدره ترتجف، والغرفة لا يكاد يكون فيها مخبأ لإخفائه. وانصرف تفكيرها على الفور إلى

الفراش، وكان فسيحاً، قالت تحدث الرجل: أسرع!

ورفعت الأغطية وأرقدت الرجل على الفراش بجوارها وغطته ووضعت وسادتين فوقه وجلست على حافة الفراش. وفي نفس اللحظة سمعت طرقاً على الباب فهتفت قائلة: من الطارق؟

جاء الجواب: الشرطة، افتحي الباب.

اتجهت نحو الباب، ولكنها لمحت كوفية زائرها الغامض ملقاة على الأرض فتناولتها وأخفتها في أحد الأدراج، ثم فتحت الباب ووجدت نفسها أمام شاب أسود الشعر يتبعه رجل في ثياب الشرطة. سألت بصوت تعمدت أن يرتجف: ماذا حدث؟

فأجاب الشاب بإنجليزية مقبولة: يؤسفنا يا آنسة أننا قد أزعجناك في مثل هذه الساعة، ولكننا نطارد مجرماً هارباً لجأ إلى هذا الفندق، ونحن في سبيل البحث في جميع الغرف. إنه مجرم خطير إلى أقصى حد.

- يا إلهي!

وفتحت الباب على مصراعيه وسمحت لرجلي الشرطة بالدخول، ولكن عملية التفتيش لم تستغرق سوى لحظة ثم قال الشاب: إنه ليس هنا.

- هل أنت واثق من ذلك؟ الواقع أنني تعودت أن أغلق الباب بالمفتاح قبل أن أنام ولكن...

- اطمئني يا آنسة، في استطاعتك أن تعودي إلى فراشك.

- يجب أن أغلق الباب خلفكما بالمفتاح، فذلك أضمن.

- ذلك أضمن فعلاً. شكراً لك يا آنسة، أرجو لك ليلة سعيدة.

انصرف الرجلان، وسمعتهما فكتوريا يطرقان باب الغرفة المقابلة ثم سمعت صوت السيدة ترينش وهي تصيح مستنكرة، واستمر الشرطيان يطرقان الأبواب حتى ابتعدا عن غرفتها.

اقتربت فكتوريا من الفراش وهي تلوم نفسها لإقدامها على مساعدة رجل غريب لمجرد أنه يتكلم لغتها دون أن تفكر في أن هذا الرجل قد يكون مجرماً خطيراً كما قال الشرطي، ووقفت أمام الفراش وقالت كلمة واحدة: انهض!

لكن الرجل لم يتحرك، فقالت بصوت هادئ: لقد رحلا، في استطاعتك أن تنهض.

ولما لم تر حركة أو تسمع جواباً رفعت الأغطية بقوة فرأت الرجل جامداً في مكانه مغمض العينين ووجهه في لون الرماد، ولاحظت في ذات الوقت وجود بقعة كبيرة من الدم على الأغطية فاستولى عليها الذعر وغمغمت: كلا، كلا، كل شيء إلا هذا!

وفي تلك اللحظة فتح الرجل الجريح عينيه ونظر إليها وتحركت شفتاه، ولكن صوته كان خافتاً جداً فلم تسمعه، وانحنت فوقه وسألته: ماذا قلت؟

تحركت شفتاه مرة أخرى وخيّل لفكتوريا أنها سمعت

كلمتين لم تفهم لهما معنى: «لوسيفر، البصرة». وتحركت شفتاه مرة أخرى بعد قليل، ولكن فكتوريا لم تتبين شيئاً مما قال، ثم اهتزت أهداب الرجل بسرعة وجمدت عيناه في محجريهما ولم يبد حراكاً بعد ذلك.

تسمرّت فكتوريا في مكانها وخفق قلبها بشدة. لقد أحست بالرثاء لهذا الرجل الذي أسلم الروح أمامها في التو واللحظة، ولكن ماذا ينبغي عليها أن تفعل الآن؟ لم تكن لديها أية فكرة! هل تستغيث؟ ولكن بمن؟ وماذا ستقول لرجال الشرطة إذا طلبوا منها إيضاحاً؟

وسمعت جلبة فنظرت خلفها ورأت مفتاح الباب يسقط على الأرض، وفي نفس اللحظة فُتح الباب ودخل السيد داكن في هدوء. قال بصوت خافت: أحسنت يا بنية. إنك تفكرين بسرعة وتعملين بسرعة، كيف حاله؟

- أظن أنه... مات.

خيّل إليها أن عيني الرجل تتألقان غضباً، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه. ولمحت فكتوريا في وجهه سمات الرجل الحازم النشيط المتوقد ذكاء، رجل يختلف تماماً عما عرفته عن داكن. وانحنى فوق الفراش فكشف عن صدر الميت ثم غمغم قائلاً: طعنة خنجر في القلب تماماً. ثم أردف في أسى: لقد كان رجلاً باسلاً.

قالت فكتوريا: منذ لحظة كان هنا شرطيان قالا إنه مجرم خطير، فهل كان مجرماً حقاً؟

- كلا، بغير شك.

- وهما؟ هل كانا من الشرطة؟

- لا أعلم، ربما. على أن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً. ثم تابع بعد قليل: هل قال شيئاً قبل أن يموت؟

- نعم.

- ماذا قال؟

- قال «لوسيفر» ثم «البصرة»، ثم نطق باسم يخيّل إليّ أنه فرنسي ولكني لم أسمعه جيداً.

- ماذا كان ذلك الاسم؟

- لافارج فيما أظن.

- لافارج؟

- لكن ما معنى كل هذا؟ وماذا يجب أن أفعل الآن؟

أجاب داكن: سنفعل كل ما في وسعنا لإبعادك عن هذا الموضوع، أما معنى هذه الأحداث فذلك ما سوف أصارحك به عندما نجلس معاً. المهم الآن هو أن نتصل بماركوس ونستطلع رأيه، فهو صاحب الفندق وهو إنسان متزن التفكير رغم ثرثرته وهذره. الساعة الآن الواحدة والنصف وأعتقد أنه لم ينم بعد.

وانصرف داكن وتهالكت فكتوريا في أحد المقاعد وهي تشعر كأنها في حلم. وعندما عاد داكن ومعه ماركوس لم يكن

هذا الأخير مرحاً كعادته ولم تكن على شفتيه ابتسامته الخالدة المألوفة. قال داكن: يجب أن تتعاون معنا يا ماركوس. لقد اقتحم هذا الشخص هذه الغرفة وهو في الرمق الأخير، وكانت الشرطة تطارده فأخفته السيدة جونز بدافع الشفقة ولكنه مات. لقد أخطأت بغير شك، ولكن ليس من الإنصاف أن نلوم فتاة تصرفت بدافع مشاعرها النبيلة.

قال ماركوس: هل تريد أن أوضح الأمر لرجال الشرطة؟ أنا لا أحبهم ولا أود التعامل معهم.

قال داكن: إن كل ما نريده هو نقل الجثة من هنا دون أن نثير انتباه أحد.

- أرحب بذلك من كل قلبي، فلا أحب أن يقال إن جثة قد وُجدت في فندقي. ولكن كيف؟

- أعتقد أن ذلك يسير، هل يوجد في أسرتك طبيب؟

- نعم، زوج أختي. إنه شاب ظريف ولكني لا أريد أن أجلب له المتاعب.

- لن تكون هناك متاعب. ستنقل هذه الجثة أولاً إلى غرفتي، وبهذا تنتهي صلة الآنسة جونز بالموضوع. وبعد قليل سيأتي إلى الفندق رجل ثمل ويطلب مقابلتي ويصعد الدرج وهو يترنح، ولكنه لن يصل إلى غرفتي حتى يغمى عليه، فأتصل بك وأطلب طبيباً فيحضر زوج أختك ويستدعي سيارة إسعاف ويرافق صديقي السكير في السيارة إلى المستشفى، ولكن صديقي يموت في الطريق لأنه كان مصاباً بطعنة في قلبه قبل أن يصل إلى الفندق.

- ويترك زوج أختي الجثة في المستشفى، وغداً صباحاً يغادر السكير المزعوم الفندق في هدوء دون أن يثير ريبة أحد. أليست هذه الخطة؟

- تماماً.

- والنتيجة أن الجثة لن تكون في فندقي وأن الآنسة جونز لا تواجه متاعب من أي نوع.

- نعم، ولكن عمال الفندق يتجولون في الأروقة إلى ساعة متأخرة من الليل فعليك أن تشغلهم بشيء ريثما أنقل الجثة إلى غرفتي.

- حسناً، سأدعوهم للاجتماع في مكتبي لكي أبدي لهم بعض الملاحظات الهامة.

وانصرف ماركوس وقال داكن يحدث فكتوريا: هل يمكنك مساعدتي في نقل الجثة؟

فأومأت برأسها علامة الإيجاب، وبعد دقائق كانت الجثة مسجاة في فراش داكن. قال داكن يحدث فكتوريا: هل لديك مقص؟ حسناً، عودي إلى غرفتك وقصي من الأغطية المنطقة الملوثة بالدم وسألحق بك بعد ساعة.

- هل ستوضح لي معنى كل هذا؟

نظر إليها طويلاً ولكنه لم يجب على سؤالها.

* * *

الفصل الرابع عشر

أطفأت فكتوريا النور في غرفتها وأرهفت أذنيها، وسمعت مناقشة اشترك فيها رجل ثمل لا يبدو أنه يهتم براحة الآخرين، ثم سمعت رنين أجراس ووقع خطى كثيرة في الدهاليز، وبعد فترة من الوقت ساد صمت عميق يشبه نغمات موسيقى عربية منبعثة من غرفة بعيدة.

وخيّل لفكتوريا أنها قد انتظرت ساعات طويلة قبل أن يفتح باب غرفتها أخيراً في هدوء، فاعتدلت في فراشها وأضاءت المصباح الخافت الضوء، بينما جلس داكن على حافة الفراش وراح ينظر إليها بإمعان كما ينظر الطبيب إلى المريض قبل أن يصارحه بنتيجة الفحص، وتكلمت فكتوريا أولاً فقالت: ألا توضح لي معنى كل هذا؟

أجاب داكن: سأوضح لك كل شيء إذا تحدثنا عنك أولاً وإذا ذكرت لي ماذا تفعلين هنا وماذا جاء بك إلى بغداد.

بدأت فكتوريا تتكلم، ويبدو أنها قد تأثرت بشخصية داكن القوية فلم تحاول الكذب، وبعبارات واضحة روت قصتها دون أن تخفي شيئاً. ذكرت كيف قابلت إدوارد وكيف

قررت القدوم إلى بغداد مهما كلفها الأمر، وتحدثت عن المعجزة التي حدثت بظهور السيدة كليب والمأزق المالي في الوقت الحاضر.

قال داكن: فهمت. ثم استطرد قائلاً بعد صمت طويل: كنت أود أن أجنبك التورط في هذه القضية ولكن كان ذلك مستحيلاً لأنك تورطت فعلاً وغرقت في القضية حتى أذنيك، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا تعملين لحسابي؟

احمرّ وجهها فرحاً وهتفت: هل تعرض عليّ عملاً؟

- نعم، ولكنه عمل يختلف عن جميع الأعمال التي زاولتها. إنه عمل حافل بالأخطار.

- ولكنه شريف، أليس كذلك؟ صحيح أنني ألجأ إلى الكذب في بعض الأحيان ولكنني لا أقدم أبداً على عمل يحرمه القانون.

ابتسم داكن وأجاب: الواقع أنني لم أفكر فيك إلا لبراعتك في الكذب. إن العمل الذي أحدثك عنه شريف فاطمئني، إنك ستعملين في جانب النظام والقانون. وسأوضح لك الموقف بالقدر الذي يساعدك على فهم مهمتك ومعرفة الأخطار التي تتعرضين لها، فأنت لا تفتقرين إلى حسن الإدراك، ولكن من المؤكد أنه لم تتوفر لك في يوم ما الإلمام بمشكلات السياسة الدولية.

أطرقت فكتوريا برأسها علامة الإيجاب وقالت: إن كل ما أعلمه أن العالم يعيش فوق بركان وأن الحرب قد تقع بين يوم وآخر.

- ذلك ما يقال فعلاً. هل تعلمين لماذا؟

- بسبب اختلاف المذاهب السياسية في أمريكا وروسيا.

- أرى أنك قد قرأت بعض الصحف واستمعت إلى بعض الإذاعات. إن ما ذكرته هو الحقيقة على وجه التقريب، فهناك عقيدتان سياسيتان تمثل الولايات المتحدة الأمريكية إحداهما وتمثل روسيا الأخرى، ولا شك أن أمل العالم في المستقبل إنما يتوقف على السلام وأن السلام لن يتوطد إلاّ إذا اعترفت كل من هاتين الدولتين بحق الأخرى في اعتناق المذهب السياسي الذي يلائمها وتطبيقه في مناطق نفوذها فحسب، أو إذا اتفقتا على التعايش والتعاون. ولكن من سوء الحظ أن ما يحدث هو عكس ذلك تماماً. إن الهوة بين المعسكرين تزداد عمقاً يوماً بعد يوم حتى انتهى الأمر ببعض الناس إلى التساؤل: ألا يمكن أن يكون تعميق الخلافات بين هذين المعسكرين من عمل قوة ثالثة لا نعرفها في الوقت الحاضر؟ ذلك لأنه كلما حدث تقارب بين المعسكرين الرئيسيين وكلما لاحت تباشير اتفاق بينهما وقع حادث أفسد كل شيء وأثار شكوك كل من المعسكرين ومخاوفه من المعسكر الآخر، وهذه الأحداث التي تفرق بين المعسكرين ليست وليدة المصادفات، إنها مقصودة ومدبرة.

- مدبرة؟ لماذا؟ وكيف؟

- كيف؟ إن الوسائل كثيرة وأهمها المال. إن المال وراء كل ما يحدث في العالم اليوم، ومصدره في القضية التي نحن بصددها لا يزال موضع شك. إننا نرى بين وقت وآخر

إضرابات واضطرابات عمالية تحدث فجأة هنا وهناك فتزعزع مراكز حكومات تعمل في الواقع لمصلحة شعوبها، فالعمال يقدمون على الإضراب بسلامة نية ظناً منهم أنهم يدافعون عن مصالحهم وحقوقهم، ولكن من أين يأتي المال الذي يمول الإضرابات والحركات العمالية؟ إن أموالاً ضخمة تختفي من الأسواق ولا أحد يعرف مصيرها وكميات هائلة من الماس والأحجار الكريمة تشترى من أسواق متعددة ثم تختفي ولا أحد يعلم أين ذهبت.

- ولكن...

- إن ما أريدك أن تفهميه يا فكتوريا هو أن هناك جماعة لا نعرف نواياها على وجه التحديد ولها مصلحة في تعميق الخلافات بين المعسكرين الكبيرين، ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن لهذه الجماعة وكلاء في جميع أنحاء العالم، وبعض هؤلاء الوكلاء يشغلون مراكز خطيرة، فهم طابور خامس لا يعمل على المستوى القومي فحسب وإنما يعمل على المستوى العالمي.

- ولكن من هم هؤلاء الوكلاء؟

- نحن نظن أنهم أناس يخشون أن يعم السلام ويسود الرخاء ويعتقدون أنهم الفئة المختارة لإخضاع العالم المنحل لإرادتهم وفرض سلطانهم ونظامهم عليه قوة وقهراً. هذه الجماعة التي لا أستطيع تعريفها بطريقة أدق تباشر نشاطها من خلال مراكز متعددة أحدها في الأرجنتين والآخر في كندا والثالث (وربما أكثر) في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد

لوحظ خلال العامين الأخيرين أن ثمانية وعشرين من كبار العلماء الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة قد اختفوا تماماً كما لو كانت الأرض قد انشقت وابتلعتهم. لا أحد يعلم أين ذهبوا أو ماذا كان مصيرهم، وقد حدث مثل ذلك لكثيرين من الطيارين والمهندسين والفنيين. كذلك لوحظ أنهم جميعاً من الشبان الطموحين الذين ليست لهم روابط عائلية.

- أين ذهبوا؟

- لا أحد يعلم، ولكن بدأت تتكون لدينا فكرة عما في استطاعتهم أن يفعلوه.

كانت فكتوريا تصغي في اهتمام وشغف فمضى داكن في حديثه وقال: في هذا العصر الذي نعيش فيه يصح أن يقال إنه لا يوجد بلد يمكن أن تقام فيه مصانع ضخمة تنتج في سرية تامة، ومع ذلك فإنه توجد مناطق نائية بعيدة عن العمران وخطوط المواصلات تحيط بها الجبال والصحاري وتسكنها قبائل تبغض الأجانب والدخلاء ولم يجرؤ على ارتيادها سوى عدد قليل جداً من المغامرين. في مثل هذه المناطق يمكن أن تحدث أمور لا يعرف عنها العالم الخارجي شيئاً، وهناك منطقة بعينها يصل إليها الإنسان عن طريق الصين باجتياز الهيمالايا في رحلة شاقة طويلة، وعلى الرغم من ذلك فإنهم أرسلوا إليها الآلات والمواد والموظفين من شتى أنحاء العالم، ورجل فذ واحد ارتاب في الأمر. رجل ولد في قشجار وأجاد الحديث بلغات الشرق ولهجاته وله أصدقاء واتصالات في كل مكان. هذا الرجل وقع على الأثر وتتبعه، وحين عاد إلى العالم المتحضر

قدّم تقريراً لم يصدقه رؤساؤه لفرط غرابته، فلم يسعه آخر الأمر إلاّ الاعتراف بأنه ربما كان محموماً يهذي أو كان يحلم. شخصان فقط صدّقا ما جاء في التقرير، أنا أحدهما. فلقد حدثت المستحيلات أمام عينيّ أكثر من مرة مما جعلني أنبذ التشاؤم، أما الشخص الآخر فكان السير روبرت كروفتون لي الرحالة المشهور الذي زار بنفسه تلك المنطقة وقال إنها يمكن أن تنطوي على مفاجآت مذهلة. وتشجع كارمايكل (وهذا اسم الرجل الفذ الذي ذكرته) وقرر أن يذهب إلى المنطقة لتقصي الحقيقة. كانت رحلة محفوفة بالأخطار ولكنه كان كفؤاً لها، وبدأ كارمايكل الرحلة منذ تسعة شهور ولكن لم تصلنا أنباؤه إلا منذ بضعة أسابيع، فعلمنا أنه قد تحقق من صدق روايته وهو في طريقه إلينا ومعه الأدلة ومزيد من المعلومات. غير أن الأعداء اكتشفوا أمره. الأعداء الذين يهمهم إلى أقصى حد ألا يعود بالأدلة، فوضعوا الرقابة على الحدود وقتلوا بعض الأبرياء لمجرد الشبهة في أن يكون أحدهم هو كارمايكل، ورغم ذلك استطاع كارمايكل الإفلات وظل سليماً معافى حتى مساء اليوم.

– إذن فالرجل الذي قتل الليلة كان هو! والأدلة التي جاء بها، هل سلبوه إياها؟

ارتسمت على شفتي داكن ابتسامة باهتة وأجاب: إن من يعرف كارمايكل كما أعرفه يرتاب في ذلك. مما لا شك فيه أنهم لم يسلبوه الأدلة، كل ما في الأمر أنه مات دون أن ينقلها إلينا أو يرشدنا إلى مكانها. لقد حاول ذلك، وأعتقد أن كلمات «لوسيفر، البصرة، لافارج» هي مفتاح السر. لقد مرّ بالبصرة

وذهب إلى القنصلية ليقدم تقريره ولكنه كاد يقتل في قاعة الانتظار، وأنا أعتقد أنه ترك الأدلة التي ننشدها في مكان ما في البصرة وأريدك أن تذهبي أنت إلى هناك للبحث عنها.

- أنا؟

- نعم، أنت. إنك تفتقرين إلى الخبرة ولا تعرفين الشيء الذي تبحثين عنه، ولكنك سمعت آخر كلمات نطق بها كارمايكل. فإذا ذهبت إلى البصرة فإن هذه الكلمات قد توحي إليك بشيء. من يعلم؟ إن الحظ يخدم الغشيم كما يقول المثل.

- كم يسعدني أن أذهب إلى البصرة!

قالت ذلك بحماسة فلم يتمالك داكن من الابتسام. قال: لأن صديقك موجود هناك فهذا سبب معقول. لن يرتاب فيك أحد. اذهبي إذن إلى البصرة وافتحي عينيك وأذنيك وانظري حولك جيداً. أنا لا أستطيع أن أصدر إليك أي تعليمات وأعتقد أن ذلك أفضل، فأنت لا تنقصك سعة الخيال ولا سرعة الخاطر. ابحثي عن معنى كلمتي «لوسيفر» و «لافارج»، وأنا أعتقد أن لافارج هو اسم أحد الأشخاص.

- لكن كيف أذهب إلى البصرة ومن أين لي النقود؟

أخرج داكن حافظة نقوده وقدم للفتاة حزمة من الأوراق المالية وهو يقول: أما النقود فها هي، وأما الرحلة فعليك أن تقابلي غداً السيدة كاردي ترينش، تلك العجوز الثرثارة. قولي لها في معرض الحديث إنك تريدين السفر إلى البصرة للّحاق

ببعثة عمك المزعوم، الأستاذ بونسفوت جونز، واطلبي إليها أن تدلك على فندق هناك. وستجيبك بأن القنصلية سوف يسرها أن تستضيفك وأنها ستبرق إلى السيدة كلايتون زوجة القنصل لتستقبلك، وأعتقد أنك ستقابلين إدوارد هناك. إن جميع الإنجليز الذين يمرون بالبصرة ينزلون في ضيافة آل كلايتون، ونصيحتي الأخيرة إليك هي: إذا وقعت في مأزق وطُلب إليك الإفضاء بما تعلمين ولحساب من تعملين فلا تصطنعي الشجاعة والبطولة، بل اعترفي بكل شيء.

- يسرني أن أسمع ذلك، ولكنني قوية الإرادة ومهما عذبوني فلن أنطق بكلمة.

- لن يعذبك أحد، فالتعذيب وسيلة عتيقة. إن حقنة صغيرة تكفي لأن تحل عقدة لسانك وتجعلك تجيبين بصدق وإخلاص على كل ما يلقى من أسئلة، ولذلك لا ينبغي الاحتفاظ بأسرارك إذا كان الثمن باهظاً، وهم فضلاً عن ذلك يعرفون كل شيء ولن يجدوا في اعترافك أية معلومات جديدة. إن ما حدث الليلة لا يدع لديهم مجالاً للشك في الدور الذي أقوم به أو الدور الذي يقوم به السير روبرت.

- وإدوارد، هل أطلعه على مجرى الأمور؟

- ذلك أمر أتركه لك. المفروض من حيث المبدأ ألا يعلم أحد بمهمتك في البصرة، أما من الناحية العملية...

ونهض واقفاً دون أن يتم عبارته، ثم استطرد قائلاً: إذا أنت صارحته بكل شيء فإنه سيتعرض لنفس الأخطار مثلك، ولكني أعلم أنه كان طياراً وأنه قد أبلى بلاء حسناً في الحرب،

ولذلك أعتقد أن الأخطار لن تخيفه. هل قلت لي أن معهد «غصن الزيتون» الذي يعمل فيه إدوارد يثير ريبته؟ لو صح ذلك لكان أمراً خليقاً بالاهتمام.

- لماذا؟

- لأن ذلك هو انطباعنا نحن أيضاً عن هذا المعهد. والآن سأقول لك شيئاً آخر قبل أن أنصرف: حاولي ألا تتورطي في أكاذيب ضخمة وافتحي أذنيك جيداً، وإذا سمعت اسم هيلين شيل فافتحيهما أكثر وأكثر.

- هيلين شيل؟ من هي؟

- نحن لا نعرف عنها إلا القدر اليسير، ولكن يهمنا أن نعرف المزيد.

* * *

الفصل الخامس عشر

هتفت السيدة كارديو ترينش قائلة: فندق المطار؟ كلا، لا تفكري في ذلك. يجب أن تقيمي بدار القنصلية. إن كلايتون وزوجته سيسرهما أن يرياك. أنا أعرفهما منذ سنوات عديدة، ثم إنهما من أصدقاء الدكتور بونسفوت جونز. سأبرق إليهما الآن وعليك أن تستقلي قطار المساء.

واحمر وجه فكتوريا. إن كذبة أسقف لانجو كانت أفضل من كذبة بونسفوت جونز الذي يحتمل في أية لحظة أن تجد نفسها معه وجهاً لوجه. على أن الرحلة كانت بالنسبة إليها شيئاً جديداً مثيراً. وقد وجدت سيارة رسمية بانتظارها في محطة البصرة فاستقلتها إلى دار القنصلية.

كانت القنصلية تشغل فيلا كبيرة تحيط بها حديقة مترامية الأطراف، وبالطابق الأول من الفيلا شرفة فسيحة تدور حول المبنى كله. وقد خفّت السيدة كلايتون لاستقبال فكتوريا بالباب وهتفت على شفتيها ابتسامة ساحرة: كم يسرنا أن نراك أيتها العزيزة. إن البصرة رائعة في هذا الفصل من السنة والجميع يعلمون ذلك ويسارعون للإقامة فيها، وأحياناً كنا نجد صعوبة

في توفير مكان لجميع الزائرين، ولكن من حسن الحظ أن الأمر يختلف الآن فليس لدينا سوى ضيف واحد يعمل مع الدكتور راتبون، وهو شاب ظريف سوف تقابلينه. وقد فاتتك مقابلة ريتشارد بيكر الذي رحل أمس، وهو أيضاً شاب مهذب يُعد من خيرة علمائنا الشباب.

فكرت فكتوريا: ترى من يكون ريتشارد بيكر هذا؟ لعل من الخير أنه قد رحل، فإن أحداً لا يهمها سوى إدوارد. ومضت السيدة كلايتون في حديثها فقالت: لقد رحل إلى الكويت لقضاء يومين هناك، ولكن حدثيني: أيهما تفضلين أولاً، الاستحمام أم الغذاء؟

وفضلت فكتوريا الاستحمام أولاً فرافقتها السيدة كلايتون إلى غرفتها، وهناك اغتسلت وصففت شعرها وأصلحت زينتها استعداداً للقاء الرجل الوحيد في حياتها. كان يهمها أن تنفرد به أولاً ولو لفترة قصيرة حتى لا تفتضح صلتها المزعومة بالدكتور بونسفوت جونز، فأطلت من الشرفة وراحت ترقب قدومه. وبعد قليل رأت رجلاً طويل القامة نحيفاً يجتاز الحديقة فتوارت عنه في غرفتها، حتى إذا سمعت وقع قدميه على درج القنصلية عادت إلى مكانها في المقصورة، وما هي إلا لحظات حتى أبصرت إدوارد يجتاز الحديقة فهتفت بصوت خافت: إدوارد، إدوارد.

رفع الشاب رأسه، ولاحظت أنه أكثر وسامة مما كان عندما قابلته في لندن، فهمست قائلة: اقترب.

نظر إليها في دهشة وهتف: مستحيل، إنني لا أصدق عيني!

فهمست قائلة: ابقَ حيث أنت وسألحق بك.

وهبطت الدرج مسرعة فوجدت إدوارد في مكانه وقد تملكته الدهشة، وقالت حالما رآها: هأنذا بلحمي وعظمي.

- ولكن ماذا تفعلين هنا وكيف جئت؟ كنت أظن أنني لن أراك أبداً.

- ذلك ما ظننته أنا أيضاً.

- ولكن ماذا جاء بك إلى هنا؟

- الطائرة.

- مفهوم، ولكن أية مصادفة سعيدة ساقتك إلى البصرة؟ كيف قدمت إلى هنا؟

- بالقطار.

- يا لك من خبيثة! أجيبي بالله عليك.

- لقد جئت برفقة سيدة أمريكية كسرت ذراعها تدعى السيدة كليب، وقد عرضت عليّ مرافقتها غداة يوم رحيلها لأنني ضقت ذرعاً بلندن فقلت لنفسي إنه ليس ثمة ضرر من تغيير الجو.

- أنت رائعة يا فكتوريا. وهذه السيدة كليب، أهي هنا في البصرة؟

- كلا، لقد رحلت لزيارة ابنتها في كركوك. كان الاتفاق أن أرافقها خلال الرحلة إلى بغداد فحسب.

- وماذا تفعلين الآن؟

- ما زلت أحاول الاستفادة من تغيير الجو، وكان طبيعياً في سبيل ذلك أن ألجأ إلى الحيلة والخداع ولهذا حرصت على التحدث إليك قبل أن نلتقي أمام الآخرين حتى لا تعلن على الملأ أنني كنت في آخر لقاء بيننا مجرد كتابة اختزال متعطلة.

- اطمئني، قولي لي ماذا زعمت عن نفسك فأؤيد مزاعمك.

- لقد زعمت أنني ابنة أخ الدكتور بونسفوت جونز عالم الآثار المشهور وأنني سألحق به لاحقاً.

- وطبعاً لا صحة لشيء من هذا كله؟ ولكن هبي أنك تقابلت مع الدكتور بونسفوت جونز؟

- إنني أستبعد ذلك، فقد قيل لي إن عالم الآثار إذا بدأ في إحدى الحفريات فإنه لا يبارح مكانه ولا يفكر في شيء آخر.

- قيل لي أنا أيضاً شيء بهذا المعنى، ولكن هل لبونسفوت جونز ابنة أخ حقاً؟

- ومن أين لي أن أعلم؟

- إذن فأنت لم تنتحلي شخصية فتاة أخرى؟ إن هذا أقل خطورة.

- أليس كذلك؟ ثم إنني أستطيع عند الضرورة أن أزعم أنني ابنة عمه ولكني تعودت أن أدعوه عمي.

- إنك تفكرين في كل شيء يا فكتوريا. أنت فتاة مدهشة حقاً. ولكن هل فكرت في مزاولة عمل ما؟

- إنني أسعى للحصول على عمل، وقد ذهبت إلى «غصن الزيتون» وقابلت الدكتور راتبون فوافق على أن أعمل في المعهد ولكن مجاناً.

- يا له من وغد عجوز! إنه يريد أن يعمل الناس معه حباً في الأدب والفن.

- هل هو محتال؟

تردد إدوارد قليلاً قبل أن يجيب: الواقع أنني لا أستطيع أن أبدي رأياً، فهو يعمل من أجل فكرة ويعمل بإخلاص، والمعمل لا يدر عليه ربحاً، ولكني مع ذلك لا أتمالك الإحساس بأن في الأمر ما يريب.

قالت فكتوريا: هلمّ بنا ندخل ولنتحدث في ذلك فيما بعد.

هتفت السيدة كلايتون حالما أبصرت بهما: لم يخطر ببالي أبداً أن كلاً منكما يعرف الآخر.

ضحكت فكتوريا وأجابت: إننا صديقان قديمان، ولكني لم أتوقع أن أجده هنا.

قال السيد كلايتون: هل فرغت من عملك في الجمارك؟

- كلا، ولا تزال صناديق الكتب في مكانها والإفراج عنها يتطلب إجراءات لا نهاية لها.

فابتسم كلايتون وقال: هكذا الحال في الشرق، لا شيء يتم بسرعة.

- يخيل إليّ في بعض الأحيان أنهم يتعمدون الإبطاء، فالمسؤولون قلما تجدهم في مكانهم عند الحاجة إليهم. إن نواياهم تبدو طيبة والجميع على استعداد للتعاون والمساعدة ولكن لا شيء يتحرك من مكانه.

ضحك فقالت السيدة كلايتون: لا شك أنك ستصل إلى نتيجة عاجلاً أو آجلاً، وقد أحسن الدكتور راتبون باختيارك لهذه المهمة ولولا ذلك لبقيت الصناديق في الجمرك شهوراً عديدة.

- منذ بدأت أحداث فلسطين وهم يخشون القنابل والمطبوعات المثيرة، إنهم يرتابون في كل شيء.

قالت السيدة كلايتون وهي تنظر إلى زوجها: أرجو ألا يجدوا في صناديق الدكتور راتبون بعض القنابل.

فأجاب الزوج: يا زوجتي العزيزة! إن الدكتور راتبون عالم كبير وعضو في عدة أكاديميات ومعروف ومحترم في أوروبا كلها.

كان في صوته ولهجته معنى التأنيب، ولكن زوجته تجاهلت ذلك وقالت: ما دام الأمر كذلك فإنه يستطيع العمل بتهريب الأسلحة دون أن يثير ريبة أحد.

فلم يجب كلايتون، ورأت على وجهه دلائل الامتعاض.

بعد الغداء خرجت فكتوريا وإدوارد للنزهة على ضفة شط العرب، وتوغلا في سيرهما حتى وصلا إلى السوق. ثم عادا في الطريق إلى القنصلية، وفجأة قالت فكتوريا لصاحبها: حدثني يا إدوارد، ما لقبك؟ أنت لم تذكر لي اسم عائلتك.

- يا إلهي! هذا صحيح، إن اسمي كاملاً هو إدوارد جيرنج.

- الواقع أنني قد شعرت بشيء من الحرج حين ذهبت إلى «غصن الزيتون» للسؤال عن شخص لا أعرف عنه إلا إنه يدعى إدوارد.

- ألم تقابلي هناك فتاة ذات شعر أسود؟

- نعم.

- إنها تدعى كاترين وهي فتاة ظريفة، ولو ذكرت أمامها اسم إدوارد لعرفت على الفور من تعنين. أنا واثق من أنك وكاترين سوف تصبحان خير صديقتين.

- لا أظن أن هناك ما يدعو للقائنا.

- ولم لا؟ سأسعى لإلحاقك بعمل في «غصن الزيتون».

- كيف؟

- لا أعلم، ولكني سأفكر في الأمر. سأقول لراتبون إنك تجيدين الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة مثلاً.

- ولكنه سوف يلاحظ أن هذه ليست الحقيقة.

- مهما يكن الأمر فسأجد لك عملاً في المكتبة لأنني لا أرضى أن تقضي وقتك في الطواف هنا وهناك بحثاً عن وظيفة، ولكني سأصارحك من الآن بأن العمل في المعهد لن يكون سهلاً كما تتوهمين.

- ذلك بالإضافة إلى أن نشاط المعهد يثير الريبة، أليس هذا هو رأيك؟

- أعتقد أنني قلت ذلك.

- وأنا بدوري أعتقد أنك على حق.

فتحول إليها وسألها بحدة: ما حملك على هذا الاعتقاد؟

- بعض أمور سمعتها من أحد أصدقائي.

- من هو؟

- أحد الأصدقاء.

فقلب إدوارد شفته ولم يجب، وقالت فكتوريا بعد لحظة: حدثني يا إدوارد، ألا يوجد بين المترددين على «غصن الزيتون» شخص يدعى لافارج؟ وهيلين شيل؟ ألا يذكرك هذا الاسم بشيء.

كان رد الفعل هذه المرة سريعاً، فقد استدار إدوارد إلى فكتوريا وأمسك بيدها بشدة وقال: ماذا تعلمين عن هيلين شيل؟

- دع يدي يا إدوارد، إنك تؤلمني! أنا لا أعلم عنها شيئاً، إنني أسألك إذا كنت تعرف شيئاً.

- من حدثك عنها؟ السيدة كليب؟

- كلا، لا أذكر تماماً.

- وما يحملك على الظن بأن لهيلين شيل صلة بغصن الزيتون؟

- هل أخطأت في هذا الظن؟

- لا أعلم، لا أعلم. كل شيء يبدو غامضاً.

كانا قد وصلا إلى سور الحديقة فنظر إدوارد إلى ساعته وقال: يجب أن أذهب لمقابلة رجال الجمارك. مما يؤسف له أنني لا أعرف اللغة العربية. سأتركك الآن لوقت قصير فإن هناك أشياء كثيرة أريد أن أسألك عنها.

- وأنا لدي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك.

* * *

في المساء خرج الشابان للنزهة مرة أخرى، وشغلهما الحديث عن الاستمتاع بجمال الطبيعة في ضوء القمر. كانت فكتوريا قد قررت مصارحة إدوارد بقصتها فقالت: بدأ كل شيء ببساطة تامة، لقد فُتح باب غرفتي في فندق تيو ودخل رجل ولم يلبث أن مات بضربة خنجر.

- ماذا قلتِ؟

- قلت إنه مات بضربة خنجر، ولو استخدموا في قتله مسدساً لسمعت صوت الطلق الناري. مهما يكن الأمر فإنه قد مات.

- مات ثم دخل غرفتك؟

- لا تكن مغفلاً يا إدوارد!

وسردت عليه القصة كلها ولكن ليس بالبراعة التي اعتادت أن تكذب بها، وكانت النتيجة أن إدوارد سألها حالما فرغت من قصتها: هل أنت بخير يا فكتوريا؟ هل أنت واثقة من أنك لم تصابي بضربة شمس؟

نظرت إليه مستنكرة ولم تجد ما تعقب به على سؤاله فقال: إنك تذكرين أموراً لا يمكن تصديقها، فالمنظمة العالمية التي تتحدثين عنها والاستعدادات السرية التي تجري في التيبت أو بلوشستان... كل هذه الأمور لا وجود لها إلا في القصص. حقاً إنك فتاة خصبة الخيال يا فكتوريا. اعترفي بأن كل ما ذكرتِه هو من اختراعك وأنك ما سألتني عن هيلين شيل إلا لتؤيدي قصتك الخيالية.

- لكنك سمعت بهذا الاسم من قبل، أنا واثقة من ذلك.

- أعتقد أن بعضهم قد ذكره أمامي.

- أين؟ في «غصن الزيتون»؟

فكر إدوارد لحظة ثم قال: ربما، لأن الأمر يبدو غريباً.

- تكلم.

- لقد أعجب بك يا فكتوريا ولكني لست مثلك وليس لي ذكاؤك. إنني أشعر بالأمور ولكني لا أحسن التعبير عنها.

- إذن لا تجهد نفسك. إنني أعرف هذا الشعور، وقد خالجني آخر مرة في فندق تيو عندما رأيت السير روبرت جالساً في الشرفة.

- السير روبرت؟

- نعم، السير روبرت كروفتون لي. لقد كان معي في الطائرة ولكني عندما رأيته في شرفة الفندق أحسست إحساساً غامضاً بأنه غير طبيعي وأنه يفتقر إلى شيء يكمل انطباعاتي الأولى عنه، أما ما هو هذا الشيء فذلك ما لا أعلمه ولا أستطيع التعبير عنه.

- أعتقد أن راتبون قد طلب منه إلقاء محاضرة في «غصن الزيتون»، ولكن أظن أنه استقل الطائرة أمس إلى دمشق أو إلى القاهرة.

- لنعد إلى حديثنا عن هيلين شيل.

- كل ما أذكره هو أنني سمعت إحدى الفتيات تردد اسمها.

- كاترين؟

- ربما كانت هي.

- وماذا قالت عن هيلين شيل؟

- كانت تتحدث مع فتاة أخرى في «غصن الزيتون» وسمعتها تقول: سوف تتغير الأوضاع لدى وصول هيلين شيل، فإننا لا نتلقى الأوامر إلا منها ومنها وحدها.

- ألم يثر هذا الكلام دهشتك وفضولك يا إدوارد؟

- كلا، لقد قلت لنفسي إنهما ربما تنتظران رئيسة جديدة لشؤون المكتبة. ولكن اصدقيني القول يا فكتوريا: هل أنت واثقة من أن القصة التي سردتها عليّ لم تكن مجرد حلم؟

رمقته بنظرة صاعقة أرغمته على التراجع والاعتذار. قال: معذرة يا فكتوريا. الواقع أنني لم أستطيع تجاهل القصص العجيبة التي دأبت على اختراعها كقصة أسقف لانجو وقصة بونسفوت جونز وغيرهما.

هزت كتفيها وأجابت: تلك كانت مجرد دعابات صبيانية، أما القصة التي سردتها عليك اليوم فإنها جدية وعلى جانب عظيم من الأهمية.

- هل أحسست بأن المدعو داكن كان مقتنعاً بصحة المعلومات التي ذكرها لك؟

- كان مقتنعاً تمام الاقتناع. ولكن حدثني يا إدوارد، كيف علمت...؟

ولم تتم عبارتها فقد سمعت في تلك اللحظة صوتاً من الشرفة يهتف: أما آن لكما أن تدخلا؟ لقد أعددت لكما أقداح القهوة.

كان ذلك صوت السيدة كلايتون، فهرول الشابان إلى الداخل.

كانت فكتوريا تتناول طعام الإفطار على مائدة آل كلايتون في صباح اليوم التالي حين فتح جيرالد كلايتون جهاز الراديو لسماع نشرة الأخبار، وشرع المذيع في تلاوة الأنباء فقال:

أعلن رئيس الوزراء في مجلس العموم أمس تفصيلات جديدة عن قيود الاستيراد. جاء من القاهرة أن جثة السير روبرت كروفتون لي قد وُجدت طافية في النيل...

وضعت فكتوريا كوب الشاي على المائدة أمامها ونظرت في هلع إلى السيدة كلايتون التي أرسلت آهة ذعر شديدة، ومضى المذيع يقول: كان السير روبرت قد وصل بالطائرة إلى القاهرة قادماً من بغداد ونزل بأحد الفنادق الكبرى بالعاصمة المصرية، وغادر الفندق في المساء وانقطعت أخباره طوال الأربع والعشرين ساعة التالية إلى أن وجدت جثته. وقد أثبت الفحص الطبي أنه لم يمت غرقاً وإنما قتل بطعنة خنجر أصابت القلب. والسير روبرت رحالة ذائع الصيت اكتسب شهرته من رحلاته في الصين وبلوشستان وله بضعة مؤلفات قيمة...

قالت السيدة كلايتون وقد شحب وجهها: مات مقتولاً؟ يا إلهي! هل كنت تعلم ذلك يا جيرالد؟

فأجاب كلايتون: علمت أنه اختفى، ويبدو أن شخصاً حمل إليه رسالة فقرأها وغادر الفندق على الأثر دون أن يذكر اسم المكان الذي ذهب إليه.

وبعد لحظات خلا المكان إلا من فكتوريا وإدوارد فقالت الفتاة: ما قولك الآن؟ أما زلت تعتقد أنني قد اخترعت القصة؟ لقد قُتل كارمايكل أولاً ثم لحق به السير روبرت، ويبدو أن كل من له صلة بالموضوع مصيره الهلاك، ومن يدري فلعل دوري قد اقترب؟

- أرجوك يا فكتوريا، لا تتكلمي بهذه اللهجة كما لو أن الأمر مجرد دعابة. على أنني لا أرى ما يبرر خوفك، فأنت لا تعلمين شيئاً بصفة مؤكدة وليس لك في الموضوع أي دور إيجابي وموقفك منه لا يختلف عن موقفي.

- أنا الذي جررتك إلى هذا المأزق.

هز كتفيه وقال: أرجو أن أكون في مأزق حقاً، فإن ذلك يضفي شيئاً من الإثارة على الحياة المملة التي أحياها.

* * *

الفصل السادس عشر

قال داكن: حدثيني، هل وجدت صديقك؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب، فقال: هل اكتشفت شيئاً؟

- كلا.

كانت تبدو عليها دلائل الضيق، فابتسم داكن وقال: ليس ثمة ما يدعو إلى الأسى، ونريد أن تذكري دائماً أن النتائج في هذه اللعبة قلما تأتي بسرعة.

- وهل أستمر؟

- هل يهمك أن تستمري؟

- طبعاً، فقد وعدني إدوارد بعمل في «غصن الزيتون» وأعتقد أنني إذا فتحت عينيّ هناك فقد أقع على بعض الأمور الهامة، وخاصة عن هيلين شيل. إنهم يعرفونها هناك.

- أحقاً تقولين؟ وكيف اكتشفت ذلك؟

قصت عليه فكتوريا ما سمعه إدوارد من كاترين فقال داكن: هذا أمر على جانب عظيم من الأهمية.

- لكن من هي هيلين شيل هذه؟ هل تعرف عنها شيئاً أم أنها بالنسبة إليك مجرد اسم؟

- هيلين شيل هي سكرتيرة أحد كبار الماليين في أمريكا ومدير أحد البنوك الدولية الكبرى، وقد رحلت من نيويورك إلى لندن منذ عشرة أيام واختفت بعد ذلك.

- اختفت؟ لا شك أنك لا تقول إنها ماتت.

- إذا كانت قد ماتت فإن جثتها لم تظهر بعد.

- ولكن هل ماتت؟

- ربما.

- وهل كان يجب أن تأتي إلى بغداد؟

- لا أعلم، ولكن إذا صحّ ما سمعه إدوارد من المسماة كاترين فلا بد أن هيلين شيل كانت تنوي الحضور إلى بغداد. على أنه ليس لدينا حتى هذه الساعة ما يحملنا على الاعتقاد بأنها ليست على قيد الحياة.

- ربما استطعت أن ألتقط بعض الأنباء عنها في «غصن الزيتون».

- ربما، ولكني أناشدك بأن تكوني حذرة، فنحن نناضل أشخاصاً لا يتحرجون من شيء ولا أريد أن يعثر على جثتك يوماً ما طافية في نهر دجلة.

- كما عُثر على جثة السير روبرت كروفتون لي؟ بمناسبة

الحديث عن السير روبرت، لقد لاحظت فيه عندما رأيته في فندق تيو منذ أيام شيئاً أثار حيرتي.

- شيئاً فيه أثار حيرتك؟ أي شيء تعنين؟

- هذا ما أحاول أن أتبينه، ولعله أمر لا يستحق الاهتمام.

- إن أتفه الأمور قد تكون لها أهمية كبرى.

- من رأي إدوارد أنني إذا وُفّقت إلى عمل في «غصن الزيتون» فيجب أن أنتقل من فندق تيو إلى غرفة مفروشة عند أحد العائلات أسوة بالفتيات اللاتي يعملن في المعهد.

- الواقع أن ذلك أفضل. يبدو أن صديقك إدوارد شاب متزن التفكير.

- هل تريد أن تقابله؟

- كلا، بل قولي له ألا يحاول مقابلتي حتى لا يتورط في الموضوع كما تورطت أنت بعد موت كارمايكل، إنه الآن بعيد عن الشبهات والأفضل أن يظل كذلك.

- كنت أود أن أعرف من الذي قتل كارمايكل، هل قتله شخص تبعه إلى الفندق؟

- كلا، فذلك مستحيل.

- مستحيل؟

- لقد جاء عن طريق النهر ولم يكن هناك من يتعقبه. نحن نعلم ذلك لأن رجالنا كانوا يراقبون النهر.

- هل قتله إذن شخص كان موجوداً بالفندق؟

- أكاد أجزم بذلك، وبالتحديد فإن القاتل كان يقيم في هذا الجناح بالذات، فقد كنت أراقب الدرج بنفسي ولم أرَ أحداً يأتي عن طريقه. وفكر داكن لحظة ثم استطرد قائلاً: وذلك يسهّل عملية حصر المشتبه فيهم، إذ لم يكن في هذا الجناح سواك أنت والسيدة كارديو ترينش وتيو وشقيقتاه وخادمان عجوزان يعملان في الفندق منذ عدة أعوام، ورجل يدعى هاريسون من موظفي شركة البترول في كركوك ويخيّل إليّ أنه رجل شريف. ولكن لا يحتمل أن يكون القاتل واحداً من هؤلاء.

- لماذا؟

- لأن كارمايكل كان شديد الحذر، وكان يعلم أنه قد وصل إلى أخطر مرحلة في مهمته. ثم إنه كان يتمتع بما يشبه أن يكون حاسة سادسة تنبهه إلى الخطر.

- إذن هل قتله رجلا الشرطة؟

- لقد حضرا فيما بعد، وقد جاءا من الشارع، ولا بد أنهما تلقيا إشارة من شخص ما ولكنهما ليسا القاتلين، فالقاتل شخص كان كارمايكل يعرفه ويثق به أو إنسان نكرة تافه لا يؤبه به. ليتني أعرف فقط أي الافتراضين أصح!

* * *

استطاع إدوارد بطريقة ما لم تعرفها فكتوريا أن يجد لها عملاً في «غصن الزيتون» بمرتب ضئيل، فكانت تقضي كل

وقتها في غرفة مظلمة مضاءة بالكهرباء بصفة مستمرة حيث تكتب مختلف الرسائل والنشرات ذات الصلة بأعمال المعهد على آلة كاتبة رديئة.

لقد قال لها إدوارد إنه يرتاب في نشاط المعهد وأيد داكن هذا الرأي وحضها على أن تحاول معرفة ما إذا كان هذا الرأي يقوم على أساس، وكانت تتمنى أن تجد شيئاً إلا أنه لم يكن هناك شيء يمكنها أن تجده. كانت رسالة المعهد هي دعم السلام بين الشعوب، فكانت تعقد فيه الاجتماعات وتلقى المحاضرات وتوزع الشطائر وعصير البرتقال، ولكن لم تكن هناك أسرار أو مؤامرات.

كانت فكتوريا قد غادرت فندق تيو وأقامت في إحدى الشقق المفروشة على الضفة اليسرى للنهر مع بعض فتيات من جنسيات مختلفة بينهن كاترين، وقد أحست فكتوريا بأن كاترين ترمقها بنظرات تنم عن السخط والكراهية ولكنها لم تعلم هل ذلك لأنها ترتاب في أمرها أو لأنها تغار منها، وبعد تفكير طويل رجحت فكتوريا الافتراض الأخير، فقد كان معروفاً أنها تدين بوظيفتها لإدوارد. ولم تكن كاترين هي الوحيدة التي أكلت الغيرة قلبها فجميع فتيات المعهد كُنّ مولعات بإدوارد لأن إدوارد يعاملهن على قدم المساواة فلا يؤثر إحداهن على الأخرى، غير أن صلته بفكتوريا أمام الأخريات كانت تتسم بمزيد من التحفظ.

وعلى الرغم من اقتناع فكتوريا بأن نشاط «غصن الزيتون» فوق الشبهات فإن سلوك مؤسس المعهد كان يثير في نفسها

الريب والمخاوف، فقد حدث أكثر من مرة أنها لاحظت أنه يرمقها خلسة بنظرات فاحصة، وودت لو أنها تعرف ماذا يظن العجوز بها وهل يرتاب في الأسباب التي حملتها على العمل في المعهد.

كانت تعليمات داكن محددة، وقد اتفق معها على طريقة الاتصال به فيما إذا كانت لديها معلومات تود الإفضاء بها إليه، فأعطاها منديلاً وردي اللون وطلب إليها إذا أرادت مقابلته أن تتنزه على ضفة النهر كما اعتادت أن تفعل كل مساء إلى أن تجد درجاً يؤدي إلى المكان الذي ترابط فيه قوارب النزهة والصيد فتضع قطعة من المنديل في مسمار مثبت في جدار الدرج.

انتهزت فكتوريا فرصة سفر إدوارد إلى إيران فاتصلت بداكن بالطريقة المتفق عليها، لا لشيء إلا لتصارحه بأنها لم تقع على جديد وأن حياتها في المعهد مملة إلى أقصى حد. فسألها داكن: والدكتور راتبون؟ هل هو رجل أمين؟

لم تدر فكتوريا بماذا تجيب، فقال داكن: الواقع أن الدكتور راتبون هو الشخص الوحيد الذي يثير قلقي لأنه رجل ذو مركز مرموق، فإذا افترضنا أن هناك مؤامرة لاغتيال إحدى الشخصيات الهامة التي ستشترك في مؤتمر بغداد فإن أحداً من الطلاب أو الشباب سوف لن تتاح له فرصة للاقتراب من الزعماء الكبار، وأية محاولة لإلقاء قنبلة سوف تبوء بالفشل لأن رجال الشرطة سيطوقون الشوارع الرئيسية وسيحيطون الزعماء المنتظر قدومهم إلى بغداد بحراسة مشددة، أما راتبون فإنه في ذاته مشكلة لأنه شخصية معروفة ومحترمة ويستطيع إذا شاء أن

يلبي الدعوات التي ترسل إليه لحضور حفلات الاستقبال التي ستقام تكريماً للزعماء، وبذلك تتاح له كل الفرص الممكنة، ولهذا أريد أن أعرف حقيقة موقفه.

في اليوم التالي عاد إدوارد من رحلته وقدم إلى فكتوريا بعض الأوراق لكتابتها على الآلة الكاتبة وقال: الدكتور راتبون يرجوك أن تكتبي هذه الأوراق فوراً مع الاهتمام بالصفحة الثانية بصفة خاصة لأنها حافلة بأسماء عربية معقدة.

تنهدت فكتوريا وشرعت في استخدام الآلة الكاتبة. كان خط راتبون واضحاً وسرعان ما فرغت من نسخ الصفحة الأولى، وعندما بدأت في كتابة الصفحة الثانية أدركت لماذا حرص إدوارد على لفت نظرها إلى هذه الصفحة خاصة، فقد وجدت رقعة صغيرة ملصقة بالصفحة الثانية ومكتوبة بخط إدوارد، وقرأت فيها هذه الكلمات: "اذهبي للنزهة على ضفة نهر دجلة في الساعة الحادية عشر صباحاً وسأكون في انتظارك بالقرب من بيت الملك علي".

فرغت فكتوريا من كتابة الأوراق وحملتها إلى الدكتور راتبون فتصفحها هذا ببطء. كانت فكتوريا قد همّت بالانصراف فبادرها بقوله: هل أنت سعيدة هنا يا فكتوريا؟

- نعم يا دكتور، شكراً لك.

نظر إليها بحدة واضطرت أن تطرق برأسها. قال: أخشى أن يكون الأجر الذي تتقاضينه ضئيلاً.

- لا أهمية لذلك، أنا أحب عملي.

- حقاً؟

- نعم، إنني أشعر بأنني أؤدي عملاً يستحق الجهد الذي يبذل فيه.

فقال دون أن يحول عينيه عن وجهها: وهل يوفر لك هذا الأجر مطالب الحياة؟

- نعم، إنني أقيم في غرفة لا تكلفني كثيراً لدى أسرة أرمنية.

- الواقع أن بغداد تفتقر إلى كاتبات الاختزال، وأعتقد أنك تستطيعين الحصول بسهولة على وظيفة أفضل بأجر أكبر.

- ولكني لا أود استبدال وظيفتي هنا بأخرى.

- ربما كان من الحكمة أن تفعلي.

هتفت بصوت مرتجف: من الحكمة؟

- هذا ما قلته. إنها مجرد نصيحة بسيطة ومجرد رأي.

كان في صوته ما يشبه التهديد، فلم تحاول الفتاة إخفاء دهشتها. قالت: الواقع أنني لا أفهم يا دكتور.

- من الحكمة ألا يقحم الإنسان نفسه في أمور لا يفهمها.

كان التهديد في هذه المرة واضحاً، وتابع الرجل قائلاً: لماذا جئت للعمل هنا؟ هل جئت من أجل إدوارد؟

- كلا طبعاً.

هز الشيخ رأسه وقال: إن إدوارد لا يزال في أول السلم،

ولا بد أن تمر سنوات عديدة قبل أن يتمكن من عمل شيء من أجلك. لو كنت مكانك لأقلعت عن التفكير فيه، ولهذا قلت لك إن في استطاعتك أن تجدي عملاً آخر في بغداد بأجر أفضل، عملاً يؤمن مستقبلك مع أناس في مستواك.

فقالت بحدة: ولكني أحب العمل في «غصن الزيتون» يا دكتور.

هز كتفيه وأشاح بوجهه، وانصرفت فكتوريا وهي في حيرة من أمر هذا الحديث. ترى هل فعلت شيئاً أثار ريبة الدكتور راتبون؟ ترى هل أدرك إنها جاسوسة؟

* * *

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي ذهبت فكتوريا للقاء إدوارد في الموعد المتفق عليه فوجدته يدخن لفافة تبغ بجوار سيارة سوداء عتيقة، وهتف إدوارد حالما رآها: برافو، كنت أخشى أن تضلي الطريق. اصعدي إلى السيارة.

فأطاعته مغتبطة وسألت: إلى أين سنذهب؟

- إلى خرائب بابل. أليس من حقنا أن نلهو قليلاً بعيداً عن «غصن الزيتون»؟

تحركت بهما السيارة. وحين نطق إدوارد باسم «غصن الزيتون» تذكرت فكتوريا حديثها مع الدكتور راتبون، وكان لا يزال يقلقها فرأت من الحكمة أن تفضي به إلى إدوارد الذي هتف بعد ما سمع روايتها: لكن هذا خطير جداً يا فكتوريا، ماذا قال لك بالتحديد؟

بذلت فكتوريا قصارى جهدها لاستعادة الكلمات التي استخدمها راتبون في حديثه، فصاح إدوارد وعلى وجهه دلائل الانزعاج: ألم تفهمي أيتها الصغيرة المسكينة أن هذا الرجل

يضمر لك سوءاً؟ كانت كلماته بمثابة تحذير وإنذار، وهذا أمر خطير! إن هؤلاء الناس لا يقفون في شرورهم عند أحد وأنا لا أريد أن أسمع يوماً نبأ العثور على جثتك في نهر دجلة.

فأطرقت فكتوريا برأسها ولم تجب. وبعد رحلة شاقة في طريق وعر استغرقت زهاء ساعتين توقفت بهما السيارة عند خرائب بابل. كانت فكتوريا تتوقع أن ترى أعمدة من الرخام وبقايا أقواس نصر كتلك التي رأتها في صور خرائب بعلبك، ولكنها لم تجد أمامها سوى حوائط من الطوب وأكواماً من الحجارة. وبعد أن طافا بالمكان انتحيا ركناً تناولا فيه الطعام الذي أحضره إدوارد معه، ثم تمددا فوق الرمال طلباً للراحة، وأغمضت فكتوريا عينيها وراحت تفكر وتتحدث إلى نفسها: هأنذا بين خرائب بابل! من يصدق ذلك؟ لا شك أنني أحلم وأنني متى استيقظت وفتحت عينيّ فسأجد نفسي في لندن في مكتب السيد جرينهولز وسأكتشف أن إدوارد لم يكن إلا شخصاً من صنع خيالي.

فتحت عينيها. كلا، إنها لا تحلم، فها هي الشمس المحرقة تصليها ناراً حامية، وهي مختلفة تماماً عن شمس لندن، وها هو إدوارد ممدد بجوارها. ما أجمل شعره الطويل المنسدل فوق عنقه! ثم إن عنقه الجميل أيضاً مثل شعره وليس فيه تجاعيد أو بثور أو ندبات أو حتى شامة واحدة كتلك التي رأتها في عنق السير روبرت حين جلس على المقعد الذي أمامها في الطائرة.

وفجأة أفلتت من فمها آهة عميقة فاستدار إليها إدوارد وسأل: ماذا حدث؟

- تذكرت شيئاً عن السير روبرت كروفتن لي.

حملق نحوها وكأنه يطلب إيضاحاً، فقالت: كانت له شامة في عنقه.

- أحقاً؟

- نعم، كان جالساً أمامي في الطائرة فرأيت الشامة.

- وأية غرابة في ذلك؟

- أنت لم تفهم يا إدوارد. عندما رأيت السير روبرت في شرفة فندق تيو لم يكن في عنقه أثر لتلك الشامة.

- وماذا في ذلك؟

- فكر جيداً يا إدوارد. عندما رأيته في الطائرة كانت في عنقه شامة، وفي الفندق لم يكن هناك أثر للشامة.

- وبم أزالها؟

- لو أنه أزالها لتركت أثراً. أصغ إليّ يا إدوارد، إن الرجل الذي رأيته في فندق تيو لم يكن هو السير روبرت.

نظر إليها في ذهول وهتف: لا شك أنك فقدت صوابك يا فكتوريا، ألم تقولي إنك رأيته وعرفته في الفندق؟

- عرفت قبعته ومعطفه ومظهره.

- لكنهم عرفوه في السفارة.

- في السفارة؟ إنه لم يذهب إلى السفارة وإنما ذهب إلى فندق تيو. كان هناك أحد الملحقين في انتظاره بالمطار أما

السفير فكان في لندن، يضاف إلى ذلك أن السير روبرت كان يكثر الأسفار فلم يره الناس في إنجلترا إلا فيما ندر.

- ولكن لماذا قتل؟

- لماذا! بسبب كارمايكل الذي كان مقرراً أن يلتقي به في بغداد ليعرف منه الحقائق التي اكتشفها في رحلاته، ولم يكن الرجلان قد تقابلا من قبل، وعندما رآه كارمايكل في الفندق لم يعرفه ولم يرتب في أمره، ومن المؤكد أن السير روبرت الزائف هو الذي قتل كارمايكل... هذه حقيقة مؤكدة يا إدوارد!

- أنا واثق من أنك تخدعين نفسك يا فكتوريا. هل نسيت أن السير روبرت قد قُتل فيما بعد في القاهرة؟

- نعم، لقد قتل في القاهرة، وهذا مخيف إدوارد. أستطيع أن أقول إنني كنت هناك حين قتل!

- هذا هو الجنون بعينه.

- كلا، أصغ إليّ يا إدوارد، إنني أذكر الآن ما حدث. لقد هبطت بنا الطائرة في القاهرة فانتظرنا في صالة الترانزيت ريثما يتم تموين الطائرة بالوقود وتستعد للإقلاع. كان السير روربت يجلس على مقربة مني فجاءت إحدى المضيفات وقالت له إنه مطلوب في المكتب وأشارت إلى غرفة تبعد بضع خطوات، وتصادف أنني غادرت مكاني بعد لحظات لأبتاع شيئاً من المرطبات ومررت بالمكتب الذي أشارت إليه المضيفة فوجدت على بابه لافتة كتب عليها «مكتب المراقبة»،

وفي نفس اللحظة فتح الباب وخرج منه السير روبرت. أنا واثقة الآن أن هذا الذي خرج من المكتب هو السير روبرت الزائف، أما السير روبرت الحقيقي فإن قاتليه كانوا في انتظاره بالمكتب المزعوم، فلما دخل أفقدوه الرشد بطرقة ما، وأكبر الظن أنهم خدروه واحتفظوا به ثم قتلوه بعد أن عاد السير روبرت الزائف من بغداد.

– قصة طريفة يا فكتوريا ولكن لا يمكن تصديقها، خاصة وأنه ليس من دليل على أن...

– الدليل هو الشامة.

– آه، الشامة.

– وهناك دليل آخر.

– ما هو؟

– اللافتة على باب المكتب. لقد اكتشفت فيما بعد ونحن في طريقنا إلى المكتب أن هذه اللافتة قد أزيلت من مكانها. وثمة أمر آخر، تلك المضيفة التي استدعت السير روبرت للذهاب إلى مكتب المراقبة المزعوم. لقد رأيتها مرة أخرى في بغداد في معهد «غصن الزيتون» عندما ذهبت إليه لأول مرة لأنها وصلت حين كنت أتحدث إلى الدكتور راتبون، وعندما غادرت مكتب الدكتور راتبون رأيتها تتحدث مع كاترين، وأحسست وقتئذٍ بأنني قد رأيتها من قبل، والآن تذكرت كل شيء.

صمتت لحظة ثم تابعت قائلة: صدقني يا إدوارد إن ما ذكرته لك الآن ليس حلماً.

فهز الشاب رأسه وقال: أريدك أن توثقي صلتك بهذه الفتاة، فإننا عن طريقها نستطيع أن نعرف الكثير. تملقيها واعملي على كسب صداقتها وتظاهري بأنك تشاطرينها آراءها ثم حاولي أن تعرفي من هم أصدقاؤها ومن هم الذين تتردد عليهم في الخارج.

- ليس أيسر من ذلك، سأحاول. ولكن حدثني، هل أطلع داكن على كل ما ذكرته لك الآن؟

- طبعاً، ولكن يحسن أن تنتظري ليوم أو يومين، فقد تكتشفين خلال هذه الفترة شيئاً جديداً.

* * *

كانت فكتوريا راضية كل الرضا عن نفسها بعد اكتشافاتها الأخيرة، فلم يشق عليها في اليوم التالي أن تلاطف كاترين وتمازحها رغم ما تضمره لها من حقد وكراهية، وقد بدأت حديثها مع كاترين بأن سألتها عما إذا كانت تعرف حلاقاً موثوقاً به يغسل شعرها ويصففه. رمقتها كاترين بنظرة فاحصة ثم قالت: أرى من شعر رأسك أنك كنت خارج المدينة أمس أثناء العاصفة الرملية.

أجابت فكتوريا: الواقع أنني استأجرت سيارة وذهبت إلى خرائب بابل، وعند العودة هبت عاصفة رملية شديدة خيّل إلي معها أنني سأفقد بصري أو سأموت اختناقاً.

قالت كاترين: إنني أصفف شعري عند فتاة أرمنية بارعة، وأنا على استعداد لأن أذهب بك إليها الليلة إذا شئت.

– لقد كنت دائماً أعجب بشعرك ولطالما تساءلت ترى ماذا تفعلين به لكي يبدو في هذا الجمال.

كانت تكذب بجرأة، ولكن كذبها أدخل السرور على نفس كاترين فلم تتمالك عن الابتسام.

وفي المساء غادرت الفتاتان المعهد واجتازتا بعض الأزقة والدروب ووصلتا أخيراً إلى باب صالون للحلاقة. كانت الآنسة أنكوميان الأرمنية صاحبة الصالون تتكلم الإنجليزية ولكن ببطء شديد، فأدخلت فكتوريا إلى غرفة كل ما فيها نظيف وأنيق وسكبت على شعرها سائلاً تحول بعد قليل إلى فقاعات صابون، وبعد أن عالجت خصلات الشعر بأصابعها قالت: والآن ضعي رأسك تحت صنبور الماء. فأحنت فكتوريا رأسها تحت الصنبور وشعرت بالماء ينهمر على شعرها، وفجأة اشتمت رائحة نفاذة ذكرتها بالمستشفيات، وفي ذات اللحظة أحست بشيء مبلل يوضع فوق أنفها، فحاولت أن تقاوم وأن تحرك رأسها فلم تستطيع، وخيّل إليها أن يداً من حديد قد وضعت شيئاً على أنفها بقوة لا تقاوم، وما هي إلا لحظات حتى غابت عن وعيها.

* * *

الفصل الثامن عشر

عندما أفاقت فكتوريا كان ذهنها ملبداً بذكريات مضطربة غير واضحة. تذكرت مثلاً أنها أحست في وقت ما بأنها ألقيت في سيارة مع أشخاص كانوا يتناقشون باللغة العربية وأنها وُضعت بعد ذلك في فراش وسلطت على عينيها أضواء قوية، ثم كشف بعضهم عن ذراعها وغرز فيها إبرة فغابت عن وعيها مرة أخرى. إنها الآن واثقة بأنها في تمام وعيها ولكن ماذا حدث لها قبل ذلك؟ حاولت أن تستجمع أفكارها وتذكرت خرائب بابل والشمس المحرقة والعاصفة الرملية وكاترين التي رافقتها إلى صالون امرأة أرمنية راحت تغسل شعرها بالماء، ثم تذكرت تلك الرائحة النفاذة. كانت رائحة كلوروفورم بغير شك، ولكن ماذا حدث لها بعد ذلك؟ وجدت نفسها ممدة على فراش شديد الصلابة ورأسها يكاد ينفجر من الصداع، وخيّل إليها أن كل شيء يدور حولها وأنه من الأفضل لها أن تقف عن التفكير وتحاول أن تنام.

عندما استيقظت أحست بأنها أحسن حالاً، وكان الوقت نهاراً فأجالت بصرها ووجدت أنها في غرفة صغيرة أرضها من الطين وليس فيها من الأثاث سوى الفراش ومائدة عرجاء

عليها آنية من التنك. ووقع بصرها في الجدار على نافذة صغيرة فأسرعت إليها وأطلت منها فاكتشفت أن غرفتها تقع في الطابق الثاني من مبنى تحيط به أشجار النخيل. تقدمت من الباب وعالجته فوجدته مغلقاً ومتيناً، فعادت إلى فراشها وجلست على حافته. ترى أين هي الآن؟ من المؤكد أنها ليست في بغداد. وماذا يراد بها؟ وهنا تذكرت حديث السيد داكن حين نصحها بألا تحاول القيام بدور البطلة، ولم تتمالك نفسها من الابتسام. لا شك أنها أفضت بكل ما تعلمه وهي تحت تأثير المخدر! شيء واحد أثلج صدرها هو أنها لا تزال على قيد الحياة! إن كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تتجلد حتى يأتي إدوارد لإنقاذها. ترى ماذا سيفعل إدوارد حين يكتشف اختفائها؟ هل سيذهب إلى داكن أم يؤثر معالجة الأمر بمفرده؟ وهل سيرتاب في كاترين؟

أضناها التفكير دون أن تجد جواباً لواحد من هذه الأسئلة. الواقع أن كل شيء يتوقف على إدوارد، إنه لطيف ووسيم ولكن هل هو ذكي؟ إن السيد داكن رجل مفرط الذكاء لا شك في ذلك، ولكن هل سيتحرك للبحث عنها؟ إنها لا تعني شيئاً بالنسبة إليه، فهي مجرد عميلة ضمن آلاف العملاء وجميعهم يجازفون ويتعرضون للأخطار والمهالك، فإذا سقط أحدهم كان ذلك من سوء حظه وكل ما يفعلونه هو أن يزيلوا اسمه من قائمة العملاء. كلا، إن داكن لن يحرك ساكناً للبحث عنها وإنقاذها. ثم إنه سبق أن حذرها وكذلك حذرها الدكتور راتبون.

فجأة سمعت وقع أقدام تقترب وحركة مفتاح في القفل

ثم فتح الباب ودخل رجل عربي يحمل صينية حافلة بأطباق الطعام، فوضعها أمامها ونظر إليها وهو يبتسم وقال لها كلاماً باللغة العربية لم تفهمه، ولكن حركة يده كانت تعني: تناولي الطعام. ثم غادر الغرفة وأوصد الباب بالمفتاح. وفحصت فكتوريا الطعام باهتمام، كان يتألف من الأرز والكرنب والخبز عدا آنية للماء فأقبلت تلتهمه بنهم، ولما فرغت من تناول طعامها أحست بالراحة وبدأت تفكر من جديد. لقد خدروها واختطفوها ولكن متى حدث ذلك؟ كان ذلك في أحد الأمسيات منذ يومين أو ثلاثة أيام أو ربما أكثر.

مرت الساعات بطيئة مملة، ثم فتح الباب مرة أخرى ودخل حارسها حاملاً صينية الطعام وتبعته امرأتان وقفتا بعتبة الباب وراحتا تنظران إليها في فضول وتتبادلان الملاحظات وتتضاحكان، ولكن الحارس لم يلبث أن أومأ إليهما بالانصراف ثم وضع الصينية أمام فكتوريا وحمل الصينية الأولى ومضى إلى الباب، وقبل أن ينصرف استدار إلى فكتوريا وقال: باكر، باكر، باكر. كانت فكتوريا تعرف هذه الكلمة. إنها تعني «غداً». إذن سيحدث شيء غداً، ولكن ماذا؟

هناك احتمالان لا ثالث لهما: إما أنها ستسترد حريتها أو ستفقد حياتها! وتمنت متى جاء الغد أن تكون في مكان آخر، ولكن هل يمكن ذلك؟ ولأول مرة بدأت تفكر من جديد في الفرار. واقتربت من الباب. لم يكن القفل من النوع الذي يمكن فتحه بدبوس الشعر، أما النافذة فكان يسهل الفرار منها بشرط ألا تحدث ضوضاء، ولكن العقبة الوحيدة هي أن الوثوب من ارتفاع خمسة أمتار قد يؤدي إلى كسر ساقيها. لقد جرت

العادة في القصص أن تصنع البطلة حبلاً من أغطية الفراش تتدلى به من النافذة، ولكن من سوء الحظ أن فراش فكتوريا لم تكن عليه أغطية. لكنها لم تفقد شجاعتها وصممت على الفرار. كانت تعلم أن حراسها أناس بسطاء لا يخطر ببالهم أن امرأة سجينة في غرفة مغلقة يمكن أن تجد طريقة للفرار، أما أعداؤها الخطرون الذين اختطفوها فإنهم ليسوا في ذلك البيت ولكنهم سيأتون غداً.

قالت تحدث نفسها: والنتيجة هي أن الفرار يجب أن يتم اليوم. فلتبدأ الآن بتناول طعام العشاء. كان الطعام يتألف من الأرز واللحم والبرتقال فالتهمت ذلك كله التهاماً، وعندما أرادت أن تشرب جرعة من الماء ارتطمت يدها بالآنية فانقلبت وسال بعض ما بها على المائدة وسقط على الأرض، ولما كانت الأرض من الطين فقد أحدث في الماء حفرة صغيرة، وهنا أتتها الفكرة. قالت لنفسها: إن كل شيء يتوقف على المفتاح، فإذا كان المفتاح في القفل أمكن عمل شيء.

كان الليل قد أرخى سدوله فنظرت من ثقب القفل فوجدت المفتاح، ولكن لا بد لها من شيء صلب تدفع به المفتاح ليسقط في الجانب الآخر. وكان معها قلم رصاص يصلح لهذه المهمة، ولكن من أين لها ذلك الجسم الصلب؟ لقد أخذوا حقيبتها. ومن حسن حظها أن وقع بصرها في تلك اللحظة على حذائها فخلعته وانتزعت منه قطعة الجلد التي تغطي نعله من الداخل وبرمتها حتى استدارت كالقلم ثم وضعتها في ثقب القفل وراحت تعالج المفتاح، ومرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن تتمكن من دفع المفتاح وإسقاطه في الجانب الآخر من الباب.

ولم يحدث سقوط المفتاح صوتاً يمكن ملاحظته، فقد سقط على أرض من الطين.

قالت لنفسها وقلبها يخفق بين ضلوعها: يجب أن أعمل بسرعة قبل أن يسود الظلام فلا أرى شيئاً. وتناولت الآنية وسكبت بعض الماء عند عتبة الباب، واستعانت بالملعقة في حفر الأرض تحت الباب حتى أحدثت فجوة فيها مررت منها ذراعها والتقطت المفتاح. وكفت عن الحركة لحظة لتلتقط أنفاسها ثم وضعت المفتاح في القفل بهدوء وأدارته ففتح الباب. وأصاخت السمع ولكنها لم تسمع سوى نباح الكلاب، وغادرت سجنها لتجد نفسها في غرفة أخرى كان بابها مفتوحاً، فأطلت من الباب ورأت الدرج.

يجب أن تخلد إلى الهدوء الآن حتى يهبط الظلام ويستغرق الجميع في النوم. وحانت منها التفاتة فرأت في أحد أركان الغرفة عباءة سوداء قديمة، فتناولتها وتدثرت بها لتخفي ثيابها وشخصيتها. وانتظرت طويلاً حتى انتصف الليل فتسللت إلى الخارج وأوصدت باب غرفتها وتركت المفتاح في القفل، وهبطت الدرج ببطء وبغير جلبة ومرت بغرفة ينبعث منها صوت شخير الحارس.

وما هي إلا لحظة حتى كانت تعبر الحديقة وتنطلق بعيداً عن سجنها، وأطلقت ساقيها للريح في طريق وعر لا تعرف إلى أين يؤدي. كان كل همها أن تبتعد عن القرية وعن سجانيها، وبعد أن تقطعت أنفاسها وأحست بأنها قد أصبحت في مأمن من المطاردة بدأت تتمهل في سيرها وتفكر فيما ينبغي عليها أن تفعله.

وبزغ الفجر أخيراً فصعدت تلاً صادفها ووقفت على قمته وأجالت البصر حولها، وراعها منظر الصحراء في الشفق وجمال الكون في ضوء النهار الطالع، وأحست بالخوف والرهبة من السكون والفراغ اللذين يحيطان بها، وهمت في لحظة ما بأن تعود أدراجها لعلها تلتقي بإنسان، أي إنسان! ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها واستردت رباطة جأشها حينما فكرت ملياً في أمرها. أدركت أنها لم تنجُ تماماً من أعدائها وأن المسافة التي قطعتها سيراً على قدميها في الظلام سيستطيعون هم في وضح النهار أن يقطعوها بالسيارة في دقائق. كان التعب قد برح بها فالتفّت جيداً بالعباءة وأرختها على وجهها لكي تبدو كالبدويات، وجلست على قمة التل طلباً للراحة ولكي ترقب الطريق حتى إذا رأت سيارة مقبلة سارعت إلى اتخاذ الإجراءات التي تناسب الموقف.

وغلبها التعب فاستغرقت في النوم، وعندما استيقظت كانت الشمس تسطع في كبد السماء. وشعرت بالظمأ فبللت شفتيها الجافتين بلسانها، وعندئذٍ طرق أذنيها صوت محرك سيارة، فنظرت حولها في كل اتجاه فرأت السيارة من بعيد نقطة سوداء في بحر من الرمال. لم تكن السيارة قادمة ناحية القرية ولكن أكبر الظن أنها كانت تقصد إليها. واختفت السيارة وراء مرتفع من الأرض ثم عادت إلى الظهور، واقتربت من التل الذي تقف فكتوريا على قمته فتبينت أن سائق السيارة رجل عربي وأن شخصاً آخر يجلس بجواره ويبدو أنه أوروبي.

ترددت فكتوريا بين أن تسارع إلى السيارة فتحتمي براكبيها أو أن تتوارى خوفاً من أن يكونا من أعدائها. كانت السيارة

في ممر مطروق ولكنها لم تلبث أن غيرت اتجاهها فجأة فخرجت من الممر وانحرفت نحو التل حيث كانت فكتوريا، ولا شك أن الرجلين أبصرا بها، وبلا تردد انبطحت على الأرض وحبست أنفاسها، وبعد لحظة توقف محرك السيارة فسمعت الفتاة كلاماً باللغة العربية ثم ساد الصمت. وجازفت فكتوريا ورفعت رأسها بحذر فرأت الرجل الأوروبي يصعد التل ويتوقف بين الفينة والفينة لالتقاط شيء. كان من الواضح أنه يعلم بوجودها ولا يهتم بأمرها، وكان واضحاً كذلك أنه إنجليزي، فتنفست الصعداء ونهضت واقفة وأسرعت إلى مقابلته وهي تقول: ليتك تعلم كم أنا سعيدة بقدومك!

رفع الرجل رأسه في دهشة وهتف: ماذا تصنعين هنا بالله عليك؟! ولكن، هل أنت إنجليزية؟

انفجرت ضاحكة وقالت وهي تتخلص من عباءتها: نعم، فهل تستطيع الذهاب بي إلى بغداد؟

- أنا قادم منها، ولكن ماذا تفعلين هنا في قلب الصحراء؟

- لقد خُدّرت واختطفت، وعندما أفقت وجدت نفسي سجينة في قرية هناك.

وأشارت بإصبعها نحو القرية، فقال الشاب: في قرية مندلي؟

- ربما كان هذا اسمها. لقد فررت منها تحت جنح الظلام، وقضيت الليل كله هائمة على وجهي في الصحراء، وتواريت عندما رأيت السيارة خوفاً من أن تكون من الأعداء.

أصغى إليها الرجل في هدوء. كان طويل القامة أشقر الشعر لا تتجاوز سنه الخامسة والثلاثين، ونظر إليها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ثم قلب شفته، وبدا عليه كأنه لا يصدق كلمة واحدة مما سمع. ولاحظت فكتوريا ذلك فصاحت في غضب: تلك هي الحقيقة!

- لكنها حقيقة أغرب من الخيال.

أُسقط في يد الفتاة. لطالما كذبت فصدقها الناس، أما الآن وهي لا تذكر إلا الحقيقة فإن أحداً لا يريد أن يصدقها! قالت: الشيء المؤكد هو أنني سأموت ظمأ إذا لم تسعفني بجرعة ماء، وسأموت ظمأ كذلك إذا أنت تركتني هنا.

قال الغريب في هدوء: ليس من المألوف أن تهيم إنجليزية على وجهها في الصحراء. إن شفتيك جافتان فعلاً.

ثم نادى سائق السيارة بقوله: يا عبد الله.

- نعم يا سيدي.

اقترب السائق من الرجل فأصدر إليه أمراً باللغة العربية، وأسرع السائق إلى السيارة وعاد بزجاجة ماء وكوب فشربت فكتوريا حتى ارتوت وقالت: أشعر بأنني أحسن حالاً الآن.

رأى الإنجليزي أن الوقت قد حان ليقدم نفسه فقال: أنا أدعى ريتشارد بيكر.

- وأنا فكتوريا جونز.

أرادت أن تثير اهتمام محدثها فاستطردت قائلة: فكتوريا

بونسفوت جونز، وقد جئت إلى بغداد للحاق بعمي الدكتور بونسفوت جونز رئيس بعثة الآثار.

فهتف الشاب وهو ينظر إليها في دهشة: يا لها من مصادفة عجيبة! أنا أيضاً في طريقي لمقابلته. إنه في مكان يبعد عن هنا نحو خمسة عشر ميلاً.

فانهارت فكتوريا ولم تقو على الكلام، وتبعته إلى السيارة دون مناقشة. قال لها بعد أن جلست في المقعد الخلفي: أعتقد أنك قد تخصصت في علم الأجناس البشرية. لقد قيل لي إنك ستأتين، ولكن لم أظن أنك ستأتين بهذه السرعة.

وأخرج من جيبه قطعاً من الخزف التقطها من التل وقال: إنه تل عجيب مليء بآثار الأقدمين، ولكن كل ما به من بقايا الأواني الخزفية يرجع عهده إلى الآشوريين.

وابتسم واستطرد قائلاً: يسرني أنك على الرغم من متاعبك قد ساقتك هوايتك إلى الآثار القديمة إلى هذا التل.

لكن فكتوريا لزمت الصمت ولم تجب. كانت تفكر في موقفها، لا شك أن أمرها سيفتضح حالما تصل إلى مقر البعثة. وراودتها أفكار الاعتراف بالحقيقة فوراً، ولكنها خشيت أن يتركها ريتشارد بيكر في الصحراء فآثرت أن تعترف للدكتور بونسفوت شخصياً، رغم أنها لم يسبق لها أن رأته. أما ريتشارد بيكر هذا فإنه لن يصدقها حتى ولو قالت الحقيقة.

كان بيكر قد جلس بجوار السائق فتحول إليها وقال: اطمئني، فلن أعود بك إلى مندلي.

انحرفت السيارة عن الممر المطروق وبدأت تشق طريقها في الصحراء. كان بيكر يصدر تعليماته للسائق بالاتجاه يميناً أو يساراً مسترشداً في ذلك بآثار لا تكاد ترى لعجلات سيارة سلكت الطريق من قبل. ومرت السيارة بعربيين يحمل أحدهما مائدة صغيرة ويحمل الآخر صندوقاً متوسط الحجم فاستوقفهما بيكر، واغتبط الرجلان بذلك وهرولا إليه وتقبلا شاكرين لفافات التبغ التي قدمها إليهما. التفت بيكر إلى فكتوريا وسألها: هل تحبين السينما؟

- طبعاً.

- غادري السيارة إذن وستشاهدين السينما.

فأطاعت وهي مشدوهة، بينما وضع العربي المائدة على الرمال ووضع صديقه الصندوق في ركن المائدة، وأشار بيكر إلى فكتوريا فجلست إلى المائدة أمام الصندوق ونظرت من خلال عدسة بجدار الصندوق، وشرع أحد الرجلين في إدارة مانيفيلا متصلة بالصندوق بينما راح الآخر يتكلم بعبارات مبهمة.

قالت فكتوريا: ماذا يقول هذا الرجل؟

فأجاب بيكر: إنه يشرح الصور باللغة العربية، وسأقوم بالترجمة الفورية.

وبدأ الترجمة فقال: "تعالي وانظري إلى عجائب الدنيا منذ بدء الخليقة حتى وقتنا هذا". رأت فكتوريا صورة من خلال العدسة مرسومة بطريقة بدائية تمثل الزنوج وهم يعملون في

حقول القطن. قال بيكر يترجم كلمات العربي: "الحياة في أمريكا"، وتغيرت الصورة: زوجة شاه عربي تصفف شعرها، وتعاقبت الصور: برج إيفل، الأمير ألبرت، شواطئ النرويج، الانزلاق على الجليد في سويسرا... وقال بيكر يترجم كلام العربي: "قد عرضنا عليك أعجب ما في الدنيا ونرجو أن يكون ما شاهدته قد حاز رضاك".

نهضت فكتوريا وهي تقول: هذا رائع حقاً! ومنح بيكر العربيين بعض النقود وتبادل معهما حديثاً طويلاً باللغة العربية، ثم انصرف الرجلان فقالت فكتوريا: إلى أين يقصدان؟

فأجاب بيكر: إلى أي مكان. لقد رأيتهما أول مرة في شرق الأردن وكانا قادمين من البحر الميت، وهما يقصدان الآن إلى كربلاء، وهما عادة يجتازان الممرات غير المطروقة لزيارة القرى النائية البعيدة عن المدينة والحضارة.

- لا شك أنهما يلتقيان بين وقت وآخر بمن يصطحبهما معه في سيارته فيوفر عليهما مشقة الطريق.

فأجاب بيكر وهو يضحك: إنك تفكرين بالأسلوب الأوروبي. الناس هنا لا يتعجلون الأمور والوقت بالنسبة إليهم لا يعني شيئاً.

مضت السيارة في طريقها، وبعد فترة قصيرة قال بيكر: لقد اقتربنا.

نظرت فكتوريا أمامها فرأت تلاً ينهض عند سفحه بيت منخفض مشيد بالطوب. ووقفت السيارة أخيراً أمام البيت

فهرول بعض الخدم في جلابيبهم البيضاء لتحية القادمين والترحيب بهم. فتبادل معهم بيكر بعض العبارات ثم قال يحدث فكتوريا: يخيّل إليّ أنهم لم يتوقعوا قدومك بهذه السرعة، ولكن لا أهمية لذلك. إنهم سيعدّون لك فراشاً وماء ساخناً، وفي استطاعتك أن تنعمي ببعض الراحة ريثما يحضر الدكتور بونسفوت جونز. إنه في التل الآن وسألحق به، وسيعنى بك إبراهيم.

تقدم المدعو إبراهيم وعلى شفتيه ابتسامة عريضة واقتادها إلى داخل البيت، فمرت بقاعة فسيحة بها بعض الموائد القديمة ثم بدهليز طويل ينتهي بباب يؤدي إلى فناء صغير، وفي الجانب الآخر من الفناء غرفة صغيرة ينفذ إليها النور من كوة في الجدار. أجالت فكتوريا البصر في جوانب الغرفة فرأت فراشاً وخزانة سيئة الصنع ومائدة ومقعداً وآنية ماء. وبعد قليل جاءها إبراهيم وهو يبتسم بوعاء مليء بالماء الدافئ ومرآة صغيرة ثبتها بمسمار في الجدار.

وأحست فكتوريا بالارتياح، إذ سيتاح لها أن تغسل وجهها وتتزين وتصفف شعرها. ونظرت في المرآة فذهلت ولم تعرف نفسها.

كانت قسمات وجهها على حالها لم تتغير، أما شعرها فقد أصبح لونه ذهبياً باهتاً!

* * *

الفصل التاسع عشر

ذهب بيكر للقاء الدكتور بونسفوت جونز، فوجد العالم الأثري الكبير يعمل بنفسه في خندق بالحفائر وبيده معول يدق به أحد الجدران في حرص وحذر شديدين، ولم يدهش الرجل عندما رأى مساعده الشاب وقال ببساطة: هذا أنت يا فتى؟ لا أعلم لماذا كنت أعتقد أنك لن تعود قبل يوم الثلاثاء.

- هل أنت واثق؟

لم ينتظر العالم الأثري الشيخ الإجابة ومضى يقول: اقترب يا فتى لأنني أريد أن أعرف رأيك في هذا. لقد بدأ الجدار يظهر رغم أننا لم نحفر أكثر من مترين، ويخيل إليّ أنني أرى عليه آثار نقوش. تعال وانظر.

فوثب بيكر إلى الخندق، وبدأ بين الرجلين حوار فني بحت استغرق زهاء ربع ساعة. وأخيراً قال بيكر: الواقع أنني عدت ومعي إحدى الفتيات.

- إحدى الفتيات؟ ومن هي؟

- تقول إنها ابنة أخيك.

- ابنة أخي؟

حاول الرجل أن ينسى حفرياته ويركز تفكيره، ثم قال: لا أذكر أن لي ابنة أخ.

قال ذلك بلهجة تدل على أنه غير واثق، وربما كانت له ابنه أخ غابت عن ذاكرته. قال بيكر: يبدو مما فهمته أنها قد جاءت لتعمل معنا.

فانبسطت أسارير العالم الأثري وهتف: آه، تذكرت... لا بد أنها فكتوريا.

- يخيّل إليّ أنها قالت إن اسمها فكتوريا.

- نعم، نعم، فكتوريا. لقد كتب لي إيمرسون بشأنها، ايمرسون الأستاذ بجامعة كمبردج. يبدو أنها فتاة موهوبة تخصصت في علم الأجناس البشرية، ولست أدري في الواقع معنى اهتمام إنسان بعلم كهذا.

- ولكن ألم تكن في انتظار فتاة تخصصت في هذا العلم؟

- نعم، ولكني لم أكن أتوقع قدومها بهذه السرعة، فليس لدينا الآن شيء في دائرة تخصصها يمكننا أن نقدمه إليها. لقد فهمت من رسالة إيمرسون أنها لن تحضر قبل أسبوعين، ولكن يبدو أنني قرأت الرسالة بسرعة ثم أضعتها فلم أعلم بمضمونها تماماً، وعلى كل حال يمكننا الإفادة من الفتاة في تسجيل قطع الخزف التي عثرنا عليها وهي كثيرة ومن عصور مختلفة.

- هذه الفتاة، أليست على شيء من غرابة الأطوار؟

- غرابة الأطوار؟ ماذا تعني؟

- ألم تصب مثلاً بمرض عصبي أو بشيء من هذا القبيل؟

- قال لي إيمرسون في رسالته إنها أرهقت نفسها في الاستعداد للامتحان النهائي، لكنه لم يذكر شيئاً عن إصابتها بمرض ما، لماذا تسأل؟

- لأنني التقطها من مكان مهجور في الصحراء. كانت هناك وحدها فوق ذلك التل الذي توقفت أنت عنده في العام الماضي، وقد قصّتْ عليّ قصة عجيبة. قالت إنها ذهبت إلى صالون للحلاقة فخدروها هناك ونقلوها إلى قرية مندلي وحبسوها في منزل ولكنها استطاعت الفرار في منتصف الليل. الواقع أنني لم أسمع في حياتي قصة أبعد عن التصديق كهذه القصة التي روتها لي.

- حقاً إنها لا تصدق، خاصة وأن الأمن يسود كل مكان في هذه البلاد.

- هذا رأيي أيضاً. لقد كنت واثقاً من أن القصة كلها محض اختلاق، ولذلك أتساءل عما إذا كانت هذه الفتاة مصابة بمرض عصبي أو نفسي، فلو كانت كذلك لأثارت لنا متاعب نحن في غنى عنها.

قال بونسفوت بلهجة المتفائل: اطمئن، فلسوف تهدأ. أين هي الآن؟

- في غرفة الضيافة. ثم استطرد بعد تردد: لقد جاءت بلا بيجامة.

- أحقاً تقول؟ لا شك أنها لا تتوقع أن أعيرها بعض ثيابي. إنني لا أملك سوى بيجامتين إحداهما مهلهلة. يا إلهي، ما أعجب فتيات هذا الزمن!

* * *

وجدت فكتوريا الدكتور بونسفوت يختلف تماماً عما تخيلته. رأت أمامها رجلاً قصير القامة يميل إلى البدانة نصف أصلع، ولشد ما كانت دهشتها حين رأته يبسط لها يديه ويقول: طاب يومك يا فيرونيكا، أعني فكتوريا. إنني سعيد برؤيتك ومندهش، فقد كنت أتوقع حضورك الشهر القادم ولكني سعيد بوجودك معنا على كل حال. ألا يزال سون يعاني من ضيق التنفس؟

فأجابت فكتوريا بصوت حاولت أن يبدو ثابتاً: إنه أحسن حالاً.

- إنه يبالغ في تغطية عنقه، وقد قلت له ذلك مراراً. كل الجامعيين يسرفون في قلقهم على صحتهم. ولكن لنتحدث عنك. قال لي ريتشارد إنك فقدت أمتعتك، فماذا ستفعلين؟ إننا لن نستطيع إرسال السيارة إلى المدينة قبل ثمانية أيام... ثم ابتسم وقال: إنني وريتشارد لا نملك شيئاً يستحق الذكر، كل ما نستطيع إعارتك إياه هو فرشاة للأسنان وحذاء وبعض المناديل.

فابتسمت فكتوريا بدورها وقالت: اطمئن، فسوف أتصرف.

- ثمة شيء آخر. إننا لم نكتشف مقابر تساعدك على ممارسة اختصاصك كباحثة في علم الأجناس البشرية، بيد

أنه يوجد لدينا أعمال كثيرة يمكن أن تشغل كل وقتك. هل تجيدين التصوير الفوتوغرافي؟

- نعم.

- هذا حسن، من المؤكد أننا سنستفيد منك كثيراً.

وبعد الغداء ذهب بها إبراهيم إلى مخزن مقتنيات البعثة فأخذت مما فيه من الأدوات ما يمكن أن يفيدها شخصياً، ثم عادت إلى غرفتها وتمددت في فراشها وراحت ترتب أفكارها. لم يكن هناك شك في أنهم يظنونها فتاة أخرى تدعى فيرونيكا تعمل باحثة في علم الأجناس وكان الدكتور بونسفوت ينتظر حضورها. ولكن ما هو علم الأجناس البشرية؟ لا بأس، سوف تبحث في أحد القواميس للتزود بالمعرفة. إن فيرونيكا هذه لا ينتظر قدومها قبل ثمانية أيام، إذن فهي تستطيع أن تعيش هذه الأيام الثمانية في طمأنينة. إن الدكتور بونسفوت جونز رجل طيب القلب وكثير النسيان فليس ثمة خطر منه، أما ريتشارد بيكر فإنه يختلف عن أستاذه. إنها لا تحب عجرفته ولا طريقته في الحملقة نحوها كمن يريد أن يتغلغل في أعماقها ويعرف دخيلة نفسها. إن من حسن حظها أنها عملت وقتاً ما ككاتبة اختزال في معهد الآثار بلندن فعرفت كثيراً من الاصطلاحات الأثرية التي تستطيع الآن استخدامها والتستر وراءها. إن الراحة خلال الأيام الثمانية القادمة سوف تساعدها على التقاط أنفاسها وتحديد موقفها.

وفكرت في «غصن الزيتون». لا شك أنهم يتساءلون هناك عن مصيرها الآن، أما أعداؤها فمن المؤكد أنهم سيظنون أنها

ضلت طريقها في الصحراء وهلكت جوعاً وظمأ، ولن يخطر ببالهم أنها قد انضمت إلى بعثة الدكتور بونسفوت في حفائر التل الأسود، ومن المحزن أن يعتقد إدوارد مثل ذلك. إنه لا يستطيع عمل شيء ولكنه إذا علم بطريقة أو بأخرى أن لكاترين يداً فيما أصابها فإنه سوف يظل نهبة القلق ووخز الضمير لأنه هو الذي ألح عليها في أن توطد صداقتها بهذه الفتاة. على أنها ما لبثت أن ابتسمت حين تصورت دهشته عندما يرى شعرها الذهبي، ولكن لماذا صبغوا شعرها؟ لا بد أن لذلك سبباً، ولكن ما هو؟

* * *

لم تلبث فكتوريا خلال الأيام القلائل التالية أن اكتشفت أن الحياة مع بعثة لا تخلو من الطرافة والإثارة.كانت تقضي كل أوقات فراغها في التهام الكتب المحفوظة في مكتبة البعثة، وكانت تقتصد في الكلام ما أمكنها الاقتصاد تجنباً للزلل. وتأقلمت مع حياتها الجديدة، فكانت تستيقظ من نومها في وقت متأخر وتتناول الإفطار ثم تذهب إلى الحفائر للتصوير أو ترتيب قطع الآثار وتنسيقها وفقاً للعصور، وكان أخوف ما تخافه أن يكتشف بونسفوت مقبرة ويطلب إليها فحص محتوياتها من هياكل وجماجم باعتبارها باحثة في علم الأجناس البشرية، ولكنها قررت إذا حدث ذلك أن تصطنع المرض وتزعم أنها مريضة بالكلى. لكنها لم تضطر إلى ذلك لأن الدكتور بونسفوت لم يكتشف سوى جدران قصر قديم أخذت تظهر شيئاً فشيئاً، وهذا الاكتشاف شدّ اهتمامها بطريقة لم تتوقعها. ولاحظ بيكر

حماستها فقال لها وهو يبتسم: لقد كنت متحمساً مثلك عندما اشتركت في أعمال الحفر لأول مرة.

- هل كان ذلك منذ وقت طويل؟

- منذ نحو خمسة عشر عاماً.

- لا بد أنك تعرف هذه البلاد جيداً.

- أعرف هذه البلاد وغيرها، أعرف العراق وسوريا وإيران.

- إن من يسمعك تتكلم العربية يظن أنك من أهل هذه البلاد. لا ينقصك سوى الثياب لتبدو عربياً.

لكنه هز رأسه وأجاب: لا أعتقد أن هناك إنجليزياً استطاع أن يقنع الآخرين بأنه عربي.

- هناك الكولونيل لورنس؟

- ربما، ولكنه لم يكن مقنعاً. أنا شخصياً لم أعرف سوى رجل واحد أمكنه أن يتنكر في زي عربي حتى ظن العرب أنفسهم أنه واحد منهم. لقد عرفت هذا الرجل وهو صبي، وقد ولد في الشرق وكان أبوه قنصلاً لبريطانيا في قاشغار، فتعلم اللغات الشرقية بكل لهجاتها التي يجهلها الأوروبيون. وأعتقد أنه لن ينسى ما تعلم. واستطرد: لقد انقطعت صلتي به بعد أن تخرجنا في جامعة إيتون. كنا نسميه الفقير لأنه كان يقضي الساعات الطوال دون أن يحرك ساكناً أو ينطق بكلمة.

- ألم تره قط بعد التخرج؟

- رأيته مرة واحدة في البصرة منذ بضعة أيام، وكان ذلك في ظروف غريبة.

- أحقاً؟

- لم أعرفه في البداية، فقد كان متنكراً في زي عربي وفي يده مسبحة وحول عنقه كوفية. ولم ألق إليه إلاّ في البداية إلى أن لاحظت أن حبات المسبحة تسقط الواحدة بعد الأخرى في فترات منتظمة وبالأسلوب الذي ترسل به البرقيات بطريقة مورس، وفهمت أن الرسالة موجهة إليّ.

- وكيف علمت ذلك؟

- كان يكرر اسمي، أو على الأصح لقبي ولقبه، ويستنجد بي، ثم نهض واقفاً وسار نحو الباب، وفي نفس اللحظة نهض رجل بدين يبدو كالوكلاء التجاريين وأخرج مسدساً من جيبه وصوبه نحو صديقي، ولكني ضربت ساعده بقوة، وبذلك نجا كارمايكل.

- كارمايكل؟!

نطقت فكتوريا بهذا الاسم بلهجة غريبة جعلت بيكر يتحول إليها ويحملق في وجهها. قال: نعم، ذلك اسمه، هل تعرفينه؟

تصورت فكتوريا دهشته حين ستقول له: نعم، وقد مات في فراشي! ولكنها أجابت: نعم، كنت أعرفه.

- كنت تعرفينه؟ هل معنى ذلك أنه...

فأومأت برأسها وأجابت: نعم، لقد مات.

- متى؟

- منذ بضعة أيام في بغداد، في فندق تيو. واستطردت قائلة بسرعة: لم يذع نبأ موته ولا أحد يعلم به.

فساد صمت قصير، ثم قال بيكر: ولكن كيف... كيف علمت أنت؟

- لأنني اشتركت في الحادث مصادفة.

فنظر إليها طويلاً وكأنه يطلب مزيداً من التفصيلات، ولكنها قالت فجأة: في الجامعة، هل كانوا يلقبونك باسم لوسيفر؟

- لوسيفر؟ لا. كانوا يلقبونني باسم «البومة» لأنني كنت أستعمل نظارات كبيرة.

- ألا تعرف في البصرة شخصاً يطلق عليه اسم لوسيفر.

فكر قليلاً وأجاب: كلا... لوسيفر ابن الغجر، الملاك الذي هوى. لقد قرأت هذا الوصف للوسيفر في إحدى القصائد.

- هل لك أن تذكر لي بالتفصيل ما حدث في البصرة؟

- لقد ذكرته لك.

- أين وقع ذلك الحادث؟

- في قاعة الانتظار بالقنصلية، وكنت قد ذهبت إلى هناك لمقابلة كلايتون.

- من كان معك في قاعة الانتظار؟ كارمايكل وذلك الوكيل التجاري، ومن أيضاً؟

- شخصان لا أعرفهما. أحدهما يبدو فرنسياً والآخر شيخ إيراني.

- كيف هرب كارمايكل؟

- انطلق يعدو في دهليز يؤدي إلى مكتب القنصل ثم انحرف يساراً نحو باب يؤدي إلى الحديقة.

- أعرف موقع ذلك الباب، فقد قضيت فترة في القنصلية عقب رحيلك مباشرة.

- أحقاً تقولين؟ هذا عجيب.

وظل يتفرس فيها ولكنها صمدت لنظراته وقالت: هل كان في القنصلية ضيوف يومئذٍ؟

- كان هناك شخص يدعى الكابتن كروسبي يعمل في إحدى شركات البترول.

تذكرت فكتوريا الكابتن كروسبي وتساءلت: أيمكن أن يكون هو لوسيفر؟ ثم قالت: سؤال أخير، هل يذكّرك اسم لافارج بشيء؟

فكر بيكر طويلاً ثم أجاب: كلا، هل هو اسم رجل أم امرأة؟

- لا أعلم.

* * *

في المساء بعد أن أوت فكتوريا إلى فراشها طلب بيكر من الدكتور بونسفوت أن يسمح له بإلقاء نظرة على الرسالة التي جاءته من إيمرسون، وقال موضحاً: أريد أن أعرف بالضبط ماذا قال في رسالته في هذه الفتاة.

فأجاب العالم الشيخ: المشكلة هي أنني لا أعرف أين وضعت الرسالة. أنا واثق من أنني أحتفظ بها في مكان ما، فقد كتبت على ظهرها بعض ملاحظات خاصة بالعمل، ولكني أذكرها تماماً. لقد أطرى إيمرسون فيرونيكا وامتدحها، وأنا شخصياً أجدها فتاة ظريفة. لقد فقدت أمتعتها ومع ذلك لم تثر أية ضجة. أية فتاة أخرى كان يمكن أن تطلب بإصرار أن نعيدها إلى بغداد، أما هي فإنها تقبلت خسارتها بروح رياضية وهذا جميل منها، ولكن كيف فقدت أمتعتها؟

- قالت إنهم خدعوها واختطفوها وسجنوها في أحد البيوت.

- آه، هذا صحيح. لقد ذكرتَ لي هذه القصة من قبل.

* * *

الفصل العشرون

بعد ظهر اليوم التالي سمع الدكتور بونسفوت جونز صوت محرك سيارة، فنظر إلى الصحراء ورأى سيارة قادمة من بعيد فصاح في ضيق: ها قد جاء زائرون جدد، كأنما ليس لديّ ما أفعله سوى استقبال هؤلاء الحمقى وشرح آخر اكتشافاتي في الحفائر.

فقال بيكر: هل نسيت فكتوريا؟ إنها تستطيع أن تحل محلك في هذه المهمة ولديها من المعلومات ما يؤهلها للقيام بدور الدليل، أليس كذلك يا فكتوريا؟

فأجابت الفتاة: إن معلوماتي قليلة وأخشى التورط في خطأ.

فقال بيكر: إنك شديدة التواضع، فالبيانات التي أدليت بها إليّ صباح اليوم عن طريقة بناء الجدار الذي اكتشفناه في الحفائر لا تصدر إلا عن أثري ضليع أو عن مهندس متمرن.

شعرت فكتوريا بالدم يصبغ وجنتيها وأجابت: مهما يكن من أمر فسأبذل قصارى جهدي.

والواقع أنها هي نفسها كانت مندهشة من الجهود التي

بذلتها خلال الأيام الخمسة التي قضتها البعثة حتى استطاعت تصنيف قطع الخزف وتحديد العصر الذي تنتمي إليه كل منها، وتصورت نوع الحياة اليومية التي كان يحياها الناس منذ ثلاثين قرناً، وأذهلها أن علماء الآثار لا يهتمون بقصور الملوك والمعابد فحسب كما كانت تتصور، وإنما يهتمون كذلك بحياة الناس في مختلف العصور. كانت فكتوريا تفكر في كل ذلك وهي في طريقها مع بيكر لاستقبال الزائرين اللذين جاءا بالسيارة.

كانا من الفرنسيين الذين يهتمون بالحضارات القديمة وقد جابا أنحاء سوريا والعراق، فرحب بهما بيكر وقدم إليهما فكتوريا. ورافقتهما الفتاة إلى الحفائر ورددت كالببغاء كل ما سمعته من إيضاحات وشفعتها بإضافات من صنع خيالها لتضفي عليها شيئاً من الإثارة. وبعد فترة من الوقت اعتذر أحد الرجلين بمرضه ورجاها أن تسمح له بالتماس بعض الراحة في البيت. كانت قد لاحظت أنه ممتقع الوجه ولا يكاد يلقي بالاً إلى حديثها، وحين انصرف قال عنه زميله إنه يشعر بآلام في معدته وقد اقترح عليه أن يرجئ الزيارة إلى يوم آخر ولكنه أصر، وعندما فرغ الفرنسي من ارتياد الحفائر دعاه الدكتور بونسفوت جونز إلى تناول الشاي ولكنه اعتذر بأنه وزميله يجب أن يبدآ رحلة العودة قبل الغروب حتى لا يضلا الطريق في الصحراء، وعلى الأثر استقل الفرنسيان سيارتهما وانطلقا بها.

بعد تناول الشاي ذهب بيكر إلى غرفته لكتابة بعض الرسائل التي اعتزم أن يودعها صندوق البريد في بغداد حين يذهب إليها في اليوم التالي، ولكنه ما كاد يفتح أحد أدراج مكتبه حتى أدرك أن هناك من عبث بأوراقه وأمتعته. ولم

يخامره شك في أن الفاعل هو ذلك الفرنسي الذي اصطنع المرض، بيد أنه اكتشف أن شيئاً لم يسرق، حتى النقود كانت كلها في مكانها. إذن؟ خطر له خاطر مزعج فهرول إلى القاعة التي أطلق عليها أستاذه اسم قاعة الأنتيكات ولكنه وجد الكنوز الأثرية لم تمس ولم يفقد منها شيء. ثم عاد إلى البهو فوجد فكتوريا تقرأ كتاباً فقال لها: لقد قام بعضهم بتفتيش غرفتي.

- من تعني بكلمة بعضهم؟

- ألم تفعلي أنت ذلك؟

فقالت مستنكرة: أنا؟ كلا طبعاً، ماذا يحملني على ذلك؟

- إذن لا بد أن يكون الفاعل أحد الزائرين الفرنسيين، وبالتحديد ذلك الذي اصطنع المرض.

- هل سرق شيئاً.

- كلا.

- إذن لماذا؟

فقاطعها بقوله: ظننتك تعلمين.

- أنا؟

- إن المغامرة التي رويتها لي والأخطار التي أحاطت بك...

- آه، أتعني ذلك؟

فكرت قليلاً ثم قالت: لكن لماذا يفتشون غرفتك وأنت لا شأن لك بـ...

- بماذا؟

لكنها لم تتم عبارتها واستغرقت في التفكير، ولم يلح عليها بيكر بالسؤال بل قنع بأن استفسر عن الكتاب الذي تقرأه فأجابت: لا يوجد في مكتبة البعثة من القصص إلا القليل. إنني أقرأ «قصة مدينتين».

- ألم يسبق أن قرأتها؟

- كلا. كنت أظن أن تشارلز ديكنز كاتب ممل، ولكنني وجدت هذه القصة طريفة ومثيرة.

- وأين وصلت فيها الآن؟

وأطل من فوق كتفها وقرأ: "وأخذت المرأة تحصي بإبرة التريكو الرؤوس التي تفصلها المقصلة".

فقالت فكتوريا: إنها امرأة مرعبة.

- من؟ مدام ديفارج؟ إنها شخصية عجيبة، وعلى الرغم من أنني لا أعرف التريكو إلاّ أنني أرتاب في أن أحداً يستطيع تسجيل قائمة أسماء بواسطة الإبرة والتريكو.

- أظن أن هذا ممكن. غرزة إلى اليمين وغرزة إلى اليسار و...

كفت عن الكلام فجأة وثار في ذهنها خاطر. تذكرت الرجل الذي اقتحم غرفتها وهو جريح والكوفية الحمراء التي يحيط بها عنقه والتي وجدتها هي بعد ذلك ودستها بين أمتعتها

ثم نسيتها تماماً. كانت مصنوعة بالتريكو، ولم تكن الكلمة التي نطق بها الرجل هي لافارج وإنما ديفارج. لاشك أنه أراد الإشارة إلى ما كانت تفعله هذه المرأة وإلى أنه قد سجل شيئاً في الكوفية.

رآها بيكر ساهمة مستغرقة في التفكير فقال لها: ماذا دهاك؟

- لا شيء، كنت أفكر في أمر.

كانت تفكر في أنها ستعود غداً إلى بغداد بعد أيام سعيدة قضتها مع البعثة ونعمت فيها بالراحة والطمأنينة في أعقاب المغامرات الرهيبة التي خاضتها، وصعب عليها أن تعود إلى خدمة السيد داكن وإلى العمل في «غصن الزيتون». كلا، إنها ستذهب إلى غرفتها وتأتي بتلك الكوفية وتقدمها إلى السيد داكن، وبذلك تنتهي مهمتها.

رفعت رأسها ونظرت إلى بيكر فوجدته يتفرس فيها. وقال لها فجأة: حدثيني يا فكتوريا، ما اسمك حقاً؟ أنت لست فيرونيكا سافيل التي أوصى بها الدكتور إيمرسون، لقد نصبت لك بضعة فخاخ فوقعتِ فيها دون أي تحفظ.

- لقد ذكرت لك اسمي عندما تقابلنا لأول مرة. اسمي فكتوريا جونز.

- هل أنت ابنة أخ الدكتور بونسفوت جونز؟

- كلا. لقد رويت لك ما حدث لي ولكنك لم تصدقني، لذلك زعمت أنني ابنة أخ الدكتور بونسفوت جونز حتى أحملك على احترامي والكف عن السخرية مني ومن قصتي.

إن اسم الدكتور له وزنه واحترامه ولكني لم أكن أتوقع أنك ستأتي بي إليه.

- هل تريدين أن تقولي إن القصة التي سردتها حقيقة؟

- إنها حقيقة.

- هل ما رويت عن كارمايكل صحيح؟

- لقد رأيت مصرعه، وكان ذلك هو بداية القصة كلها.

- إذن اسردي عليّ كل شيء بالتفصيل.

- لا أعلم إذا كنت أستطيع الوثوق بك.

- إنك تقلبين الأوضاع! هل نسيت أن هناك أكثر من سبب يحملني على الاعتقاد بأنك ما جئت إلى هنا منتحلة من الأسماء والصفات ما ليس لك إلا لاستقاء بعض المعلومات مني؟ بل ربما كان ذلك هو ما أنتِ بسبيله الآن.

- هل تعني أن لديك عن كارمايكل معلومات تهمهم؟

- تهمهم؟ من هم؟

- أظن أنني يجب أن أقص عليك القصة كلها من البداية، فإذا كنت من أعدائي فأنت تعرف كل شيء فعلاً.

سردت عليه القصة بحذافيرها ولم تخف عنه شيئاً سوى موضوع الكوفية الحمراء وما استنتجته بشأنها، وسألها بيكر بعد أن فرغت من قصتها: هل تعتقدين أن الدكتور راتبون يلعب دوراً في هذه المؤامرة الرهيبة؟ لا شك أنك تجهلين أنه عالم

كبير وشخصية لها وزنها ويتلقى معونات من شتى أنحاء العالم.

- إن تنفيذ المؤامرات يتطلب شخصاً مثله.

- أنا شخصياً أعتقد أنه مهرج.

- ذلك قناع بارع يحجب حقيقته.

- ربما، ولكن من هو لافارج الذي سألتني عنه؟

- لا أعلم. إنه بالنسبة إلي مجرد اسم مثله في ذلك مثل هيلين شيل.

- هيلين شيل؟ لم أسمع قط شيئاً عنها.

- إنها تلعب دوراً هاماً، ولكن هذا هو ما أجهله.

- هل لك أن تذكري لي مرة أخرى اسم الرجل الذي أقحمك في هذه المغامرة؟

- اسمه داكن، وأعتقد أنه يعمل في إحدى شركات البترول.

- هل هو مهدل الثياب ويبدو متبلداً خاملاً لا يصلح لشيء؟

- نعم، ولكن لا ينبغي أن تخدع بالظواهر.

قلب بيكر شفته وهز رأسه وقال: كأنني أقرأ قصة بوليسية.

لكن فكتوريا كانت تفكر في مشكلة أخرى فقالت: ماذا ينبغي أن تقول للدكتور بونسفوت جونز؟ يجب أن تصارحه بالحقيقة.

- لن نقول له شيئاً. ما الفائدة؟

* * *

الفصل الحادي والعشرون

شعرت فكتوريا بغصة وهي تلقي نظرة أخيرة على التل الأسود قبل أن تنطلق بها السيارة إلى بغداد. وبعد نحو ثلاث ساعات وصلت السيارة إلى بغداد، وهناك انطلق السائق والطاهي لشراء ما تحتاج إليه البعثة من مؤن، وقصدن فكتوريا وبيكر إلى فندق تيو.

بينما كان بيكر يتسلم الرسائل أقبل ماركوس وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، فرحب بفكتوريا ترحيباً حاراً وعتب عليها أنها لم تحضر إلى الفندق منذ وقت طويل. وأدركت فكتوريا أنه لا يعلم شيئاً عن اختطافها، وخلصت من ذلك إلى أن داكن لا بد أن يكون نصح إدوارد بعدم إبلاغ الشرطة. سألت فكتوريا صاحب الفندق عما إذا كان السيد داكن موجوداً في بغداد فأجابها بقوله: لقد رأيناه أول أمس، ونحن الآن في انتظار الكابتن كروسبي الذي سيعود اليوم من كرمنشاه.

- هل تعرف أين يوجد مكتب السيد داكن؟

- طبعاً، ومن لا يعرف مقر شركة البترول العراقية الإيرانية؟

- حسناً، سأذهب الآن بإحدى سيارات الأجرة لمقابلته.

ولكني أخشى أن يضل السائق الطريق.

- اطمئني، سأتولى بنفسي إرشاد السائق.

استقلت فكتوريا إحدى سيارات الأجرة وقالت تحدث ماركوس: نسيت أن أقول لك إنني بحاجة إلى غرفة في فندقك.

- سأحجز لك أفخم غرفة وسأعد لك عشاء شهياً؟

- وهل أستطيع أن أقترض منك بعض النقود؟

- إليك محفظتي أيتها العزيزة، خذي منها ما تريدين.

* * *

بعد نحو خمس دقائق كانت فكتوريا في مكتب السيد داكن بشركة البترول، ونهض هذا لاستقبالها وهو يقول: آنسة جونز، أليس كذلك؟ أحضر لنا قهوة يا عبد الله.

وما أن خرج الصبي العربي حتى قال داكن بصوت خافت: ما كان ينبغي أن تحضري إلى هنا.

- لم يسعني أن أفعل غير ذلك، فإن لديّ ما أريد أن أفضي به إليكِ قبل أن أقع في ورطة جديدة.

- هل كنت في ورطة؟ ماذا حدث؟

- ألم يقل لك إدوارد؟

- لم يقل لي أحد شيئاً.

عاد الرجل إلى الجلوس أمام مكتبه وهو يقول: ماذا حدث؟ ثم أضاف بعد قليل: كنت أفضل أن يظل شعرك على لونه الطبيعي.

فصمتت الفتاة ولم تجب. ودخل عبد الله فوضع القهوة وانصرف، وحينئذٍ قال داكن: في استطاعتك الآن أن تتكلمي، فإن الجدران سميكة ولن يسمعنا أحد.

وببساطة ووضوح روت فكتوريا قصة اختطافها وهروبها، وكيف وجدت الصلة بين تريكو مدام ديفارج وكوفية كارمايكل. أصغى إليها داكن باهتمام شديد وقال وعيناه تتألقان فرحاً: هذه أول معلومات ذات قيمة تصل إلينا، ولكن أين الكوفية الآن؟

- بين أمتعتي.

- ألا يعلم بأمرها أحد؟

- كلا، لسبب بسيط هو أنني كنت قد نسيتها تماماً.

- هذا حسن، وعلى فرض أن بعضهم فتش حقائبك أثناء غيابك فإن الكوفية القديمة لن تثير اهتمام أحد. إن أول ما يجب عمله هو أن نسترد حقائبك. أين تقيمين الآن؟

- لقد استأجرت غرفة في فندق تيو.

- أحسنت صنعاً.

- هل تريدني أن أعود إلى «غصن الزيتون»؟

- هل أنت خائفة؟

- كلا، وسأعود إذا طلبت مني ذلك.

- لا أظن أن من الحكمة أن تعودي إلى ذلك المعهد، ويخيّل إليّ أنهم عرفوا حقيقة أمرك، وإذا ذهبت فلن تظفري بجديد. ومن يدري؟ فقد تعودين من هناك بشعر أحمر.

- لا أدري حقاً لماذا صبغوا شعري، هل لديك أية فكرة؟

- يوجد تعليل واحد هو أنهم أرادوا إخفاء معالم جثتك.

- إذا كان في نيتهم قتلي فلماذا لم يفعلوا ذلك فوراً؟

- هذا سؤال على جانب عظيم من الأهمية أيتها العزيزة، وحبذا لو كان في استطاعتي أن أرد عليه.

ساد الصمت لحظة ثم قالت فكتوريا فجأة: نسيت أن أقول لك شيئاً هاماً. هل تذكر ما قلته لك يوماً من أن شيئاً في السير روبرت كروفتون لي قد تغير؟

- نعم.

- هل كنت تعرف السير روبرت شخصياً؟

- كلا، لم أقابله إلاّ هنا في بغداد.

- فاعلم إذن أن الرجل الذي قابلته هنا لم يكن السير روبرت!

ذكرت له ما لديها معلومات عن السير روبرت ورحلته إلى بغداد فهتف داكن قائلاً: ذلك يوضح كل شيء. لقد تخلى كارمايكل عن حذره حين قابل السير روبرت في الفندق فانتهز هذه الفرصة وفتك به، ولكن كارمايكل استطاع الوصول إلى غرفتك ومعه كوفيته التي يمكننا أن نقول إنه حرص عليها حتى آخر لحظة من حياته.

- هل تعتقد أنني قد اختُطفت لكيلا أنهي إليك هذه

الحقيقة؟ ومع ذلك فإنني لم أصارح بها أحداً سوى إدوارد.

- أعتقد أنهم رأوا أن الوقت قد حان لتصفيتك لأنك تعرفين عن «غصن الزيتون» أكثر مما ينبغي.

- لقد حذرني الدكتور راتبون... أو على الأصح هددني. لا بد أنهم عرفوا عن يقين حقيقة الدور الذي أقوم به.

- إن راتبون ليس مغفلاً.

- الواقع أنني سعيدة لأنني لن أعود إلى «غصن الزيتون». كل ما أخشاه هو ألا تتاح لي بعد ذلك فرصة للقاء إدوارد.

فابتسم داكن وقال: اكتبي الآن إلى إدوارد وقولي له إنك تقيمين في فندق تيو وإنك تعتمدين عليه في إحضار حقائبك. سأذهب بعد قليل لمقابلة الدكتور راتبون بشأن حفلة يزمع إقامتها وسيكون في استطاعتي أن أوصل رسالتك إلى إدوارد فلا تعلم كاترين عنها شيئاً، أما أنت فعليك أن تعودي إلى فندق تيو وأن تنتظري هناك، وإذا...

وتردد فسألته: وإذا ماذا؟

- إذا وقعت في مأزق فلا تفكري إلا في نفسك. سيكون هناك من يتولى حراستك ولكن أعداءك أقوياء وأنت تعرفين عنهم الكثير.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

صففت فكتوريا شعرها الأشقر وصبغت شفتيها وجلست في شرفة فندق تيو لتقوم مرة أخرى بدور جولييت. وجاء روميو ولمحته فكتوريا فنادته: إدوارد. فنظر نحو مصدر الصمت ورآها وهتف: آه، أنت هنا؟

ولحق بها إلى الشرفة وكانت خالية فنظر إليها بشيء من الحيرة وقال: أنبئيني يا فكتوريا، ماذا فعلت بشعرك؟

فتنهدت في ضيق وأجابت: إذا سألني سائل عن لون شعري بعد الآن فلن أتردد في تمزيق وجهه بأظافري.

- كنت أفضل لونه الأول، فلماذا صبغته؟

- سل كاترين.

- كاترين؟ وما صلتها بذلك؟

- ألم تطلب مني أن أوثق صداقتي بها؟ لقد أطعتك وها هي النتيجة. أكبر الظن أنها لم تنبئك بما حدث لي.

- ماذا حدث لك؟ لقد أقلقني غيابك.

- أحقاً تقول؟ ألا تعلم أين كنت؟

- كنت بالموصل طبعاً، فقد نقلت إلي كاترين رسالتك الشفوية التي قلت فيها إنك اضطررت إلى السفر فجأة إلى الموصل وإنك سوف توافيني بأنبائك.

- هل صدقت ذلك؟

- ظننت أنك قد أمسكت بطرف خيط هام ورأيت من الصواب أن تكتمي الأمر عن كاترين.

- ألم يخطر لك ببال أنها قد كذبت؟ كان يجب عليها أن تنبئك بأنهم خدروني واختطفوني.

- يا إلهي! لم أتصور مطلقاً أن يحدث أمر كهذا. ولكن ألا ترين من الحكمة ألا نتحدث في هذه الأمور في مثل هذا المكان؟ أليس من الصواب أن نصعد إلى غرفتك؟

- على رسلك، هل أحضرت حقائبي؟

- نعم، وقد وضعتها عند موظف الاستقبال في الفندق.

- أحسنتَ صنعاً، لأنني لم أستبدل ثيابي منذ أسبوع.

- ولكن ماذا حدث لك بالتفصيل يا فكتوريا؟

- إنها قصة طويلة.

- هل تعلمين ماذا يجب أن نفعل؟ إن معي سيارة وأعرف مكاناً في الضواحي على جانب عظيم من الجمال والروعة في مثل هذا الفصل من السنة، هلمي بنا إليه.

ذهبا إلى السيارة، وجلس إدوارد أمام عجلة القيادة وانطلق بالسيارة في طريق بعيد يتجه نحو الجنوب، وبعد نصف ساعة انحرف بالسيارة نحو اليمين وأوقفها في وسط ما يشبه غابة صغيرة من أشجار اللوز والبرقوق والنخيل. وكان المكان رائعاً، فهتفت فكتوريا وهي تغادر السيارة لتملأ رئتيها بالنسيم النقي: كأننا في إنجلترا في فصل الربيع.

جلسا على العشب تحت مظلة من أشجار الورد فقال إدوارد: الآن بوسعك أن تسردي لي آخر مغامراتك.

فسردت له قصتها منذ ذهبت إلى صالون المرأة الأرمنية إلى أن انضمت إلى بعثة الدكتور بونسفوت جونز وكيف لعبت دور فتاة كان الدكتور يترقب وصولها، وانفجر إدوارد ضاحكاً وصاح: الحق أنك فتاة رائعة يا فكتوريا، إن سرعة خاطرك وخصوبة خيالك تدعوان إلى الدهشة.

فابتسمت وقالت: أليس كذلك؟ الواقع أنني أفدت كثيراً من الانتساب إلى أعمام كالدكتور بونسفوت جونز وأسقف لانجو...

وعندما قالت ذلك تذكرت أمراً وتلاشت الابتسامة عن شفتيها. تذكرت سؤالاً كانت قد همّت بإلقائه على إدوارد بحديقة القنصلية بالبصرة لولا أن قطعت زوجة القنصل حديثهما، قالت: لقد تذكرت سؤالاً كنت أود أن ألقيه عليك منذ وقت طويل يا إدوارد. كيف علمت أنني اخترعت عماً هو أسقف لانجو؟

كان ممسكاً بيدها فأحست بأصابعه تضغط يدها بشدة وسمعته يقول بسرعة: أنت ذكرت لي ذلك.

فنظرت إليه بحدة. وحين فكرت في الأمر فيما بعد أدهشها أن تؤدي كذبة تافهة إلى النتائج الهائلة التي ترتبت على هذه الكذبة التي نطق بها إدوارد في غير تحرز. لقد أخذه السؤال على غرة منه وكان تقلص عضلات وجهه دليلاً على أنه لم يرض كل الرضا عن إجابته. وبدأت الحقائق تنبلج أمام عيني فكتوريا، أو لعلها كانت قابعة في ذهنها منذ وقت طويل ولكنها لم ترها إلا في تلك اللحظة. لم تكن قد حدّثت إدوارد عن أسقف لانجو، والشخصان الوحيدان اللذان سمعا اسم الأسقف الخيالي هما السيد هاملتون كليب وزوجته، ولا يمكن أن يكون أحدهما أو كلاهما قد قابلا إدوارد لأنه كان لا يزال في البصرة. لا بد أنهما ذكرا له قصة الأسقف في لندن، ومعنى ذلك أن إدوارد كان يعلم منذ البداية أن فكتوريا ستذهب إلى العراق في رفقة السيدة كليب. تباً لها ما أغباها! لقد ظنت أن الأمر مجرد صدفة بينما هو في الواقع مدبّر ومرسوم.

أدركت فجأة ماذا كان يعني كارمايكل حين ذكر اسم لوسيفر، لوسيفر أجمل الملائكة، لوسيفر الذي طرد من الجنة، لوسيفر ابن الصباح، الملاك الذي سقط. إذن فإن راتبون ليس الزعيم... إن الزعيم هو إدوارد الموظف الصغير الذي يبدو في الظاهر بلا حول ولا قوة بينما هو في الواقع كل شيء، أما راتبون فإنه مجرد ستار، ولعله ليس من الرداءة كما توهمت فهو على الأقل قد نصحها بالفرار قبل فوات الوقت. اكتشفت فكتوريا في ذات الوقت أنها لم تحب إدوارد قط وإنما

أعجبت به فقط كما تعجب أية فتاة غريرة بأحد نجوم السينما!

ولم تستغرق هذه التأملات سوى ثوانٍ ولم يظهر لها أي أثر على وجه فكتوريا وهي تنظر إلى إدوارد بإعجاب مصطنع، والواقع أنها أحست بغريزتها أنها في خطر وأنه لا توجد لنجاتها سوى وسيلة واحدة فلجأت إليها. قالت: هل تعرف ماذا خطر لي؟ خطر لي أنك دبرت كل شيء لتيسير قدومي إلى بغداد. الحق أنك رجل مدهش يا إدوارد.

فارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ولم يجب. قالت: لكن كيف استطعت أن تدبر كل ذلك؟ لا بد أنك ذو نفوذ وسلطان لا حدود لهما، ولقد بدأت أرتاب في أنك تحبني حقاً.

- أنت تعلمين أنني أحبك.

- ولكن ما الهدف من كل هذا يا إدوارد؟ أريد أن أفهم.

- الهدف هو خلق عالم جديد. عالم جديد ينهض على أنقاض العالم القديم الفاسد.

- أوضح.

انطلق يتحدث في حماسة شديدة عن الأهداف التي كرس لها حياته فقال إن العالم تتنازعه قوتان عظيمتان، الرأسمالية والشيوعية، الأولى تحرص على وضعها وتقيم العقبات في طريق التطور الحضاري والثانية تعمل على فرض سيطرتها على العالم. هاتان القوتان يجب أن تختفيا، يجب أن تدمر كل منهما الأخرى، ولا سبيل في ذلك إلا بحرب عالمية تمحو

الماضي من أساسه لكي يقبض الشباب على زمام الأمر في عالم جديد تماماً تحكمه نظم جديدة.

- لكن ألن تذهب هذه الحرب العالمية بأرواح ملايين من الضحايا الأبرياء؟

- يجب أن تفهمي أنه لا يمكن إقامة نظام جديد بغير ضحايا.

كان في مقدورها أن تقول الكثير رداً على هذا المنطق السقيم ولكنها آثرت الصمت، ومضت في لعبتها. قالت: كم أنا معجبة بك يا إدوارد! ولكن ماذا في استطاعتي أنا أن أفعل؟

- هل أنت على استعداد لخدمة أهدافنا؟

- إنني لا أعرف سواك يا إدوارد، وثقتي بك لا حد لها، فلك أن تأمر وعليّ أن أطيع.

- هذا حسن.

- حدثني أولاً. لماذا جئت بي هنا؟ لا بد أن يكون هناك سبب.

- نعم، هناك سبب. هل تذكرين أول لقاء لنا؟ لقد التقطت لك يومئذٍ صورتين.

- نعم، أذكر ذلك.

- لقد أدهشني وجود تشابه بينك وبين فتاة أخرى فالتقطت صورتك لكي أتحقق من أنني لم أخطئ.

- ومن هي تلك الفتاة التي أشبهها؟

- هيلين شيل.

- هيلين شيل؟ أنا أشبه هيلين شيل؟

لم تستطع الفتاة إخفاء دهشتها فقال إدوارد: إن التشابه ليس قاصراً على المنظر الجانبي والأمامي، ولكنه يتجاوز ذلك إلى وجود ندبة على يمين الشفة العليا لدى كل منكما.

- هذه الندبة من أثر سقوطي من فوق شجرة وأنا طفلة، ولكني أحجبها دائماً بالدهون والمساحيق.

- إن لهيلين شيل ندبة مماثلة، وهي أكبر منك بنحو أربع أو خمس سنوات ولكنها تماثلك طولاً ووزناً، كل ما هنالك من اختلاف بينكما هو أن شعرك أسود وشعرها أشقر وأن زرقة عينيها أخف من زرقة عينيك، ولكن هذا الاختلاف الأخير يمكن علاجه بالعدسات اللاصقة.

- هل هذا التشابه هو الذي حملك على إحضاري إلى بغداد؟

- نعم، فقد قدرت أننا نستطيع الإفادة منه.

- لذلك دبرت الأمر مع السيد كليب وزوجته؟ ولكن من هما بالتحديد؟

- شخصان لا أهمية لهما، يفعلان ما يؤمران به.

فكرت: "يا إلهي! ما أشد صلفه وغروره، إنه معبود نفسه وذلك ما يجعله إنساناً رهيباً". ثم قالت: لكن ألم تقل لي إن هيلين شيل شخصية هامة في منظمتكم؟

- إنما أردت أن أضللك، فقد كنت تعلمين أموراً كثيرة.

هنا قالت فكتوريا لنفسها: "إن التشابه بينها وبين هيلين شيل ربما قد أنقذ حياتها". ثم قالت بصوت عال: ومن تكون هيلين شيل هذه؟

- إنها السكرتيرة الخاصة للمالي الدولي أوتمور جنتال، وهي فتاة ذات عقلية جبارة، ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنها تعرف الكثير عن صفقاتنا المالية. كان هناك ثلاثة أشخاص على جانب عظيم من الخطورة بالنسبة إلينا، السير روبرت كروفتون لي وكارمايكل وقد تمت تصفيتهما، أما هيلين شيل فإنها لا تزال على قيد الحياة وينتظر أن تصل إلى بغداد خلال أيام ولكنها الآن مختفية.

- مختفية؟ أين؟

- في لندن.

- ألا يعرف أحد مكانها؟

- ربما كان داكن يعرف.

- وأنت؟ أليست لديك أية فكرة عنها؟

قال بعد تردد قصير: المفهوم أنها يجب أن تحضر إلى بغداد للاشتراك في المؤتمر الدولي الذي سيعقد بعد خمسة أيام كما تعلمين، وقد بحثنا في سجلات الشركات السياحية فوجدنا أن هناك مكاناً محجوزاً في إحدى الطائرات باسم سيدة تدعى جريتا هاردن، وبالاستعلام عن جريتا هاردن وجدنا أنه

اسم مستعار لسيدة أدلت عن نفسها بيانات زائفة، ولذلك فإننا نعتقد أن جريتا هاردن ليست سوى هيلين شيل. وصمت لحظة ثم استطرد قائلاً: إن طائرتها ستصل إلى دمشق بعد غد، وبعد ذلك سيتوقف كل شيء عليك أنت.

- عليّ أنا؟!

- نعم، لأنك ستحلين محلها.

فتذكرت السير كروفتون لي وأحست بالفزع. لقد لقي السير روبرت مصرعه في عملية مماثلة، وجاء الآن دور هيلين شيل. فكرت فكتوريا في أنها إذا رفضت الدور الذي يعرضه عليها إدوارد فإنه سيرتاب في إخلاصها ويفتك بها قبل أن تتمكن من الاتصال بداكن وإظهاره على اكتشافها الجديد. كان لزاماً أن تقبل فتلك هي فرصتها الوحيدة لتتمكن من الاتصال بداكن. تنهدت وقالت: لكني لا أستطيع أن أقبل ذلك يا إدوارد فسيفتضح أمري تواً لأنني لا أعرف اللكنة الأمريكية.

- إن هيلين شيل تتلكم الإنجليزية بدون أي لكنة، ثم إنك ستصابين بمرض في الحلق وسيؤيد ذلك طبيب من أكبر أطباء بغداد.

- ماذا يجب عليّ أن أفعل؟

- ستغادرين دمشق بصفتك جريتا هاردن وستلازمين فراشك في بغداد بأمر الطبيب ولا تغادرينه إلاّ للاشتراك في المؤتمر يوم افتتاحه، وهناك تقدمين ما معك من وثائق.

- وثائق مزيفة بطبيعة الحال؟

- نعم، وقد فرغنا من إعدادها.

- وماذا تثبت هذه الوثائق؟

فابتسم إدوارد وأجاب: تثبت وجود مؤامرة شيوعية ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

- وهل تعتقد يا إدوارد أن لديّ الكفاءة للقيام بهذا الدور؟

- ولم لا؟ إنك بارعة في الكذب.

لم يسع فكتوريا إلاّ الاعتراف فيما بينها وبين نفسها بفوائد الكذب، فلولا أنها نسبت نفسها كذباً إلى أسقف لانجو لما استطاعت أن تميط اللثام عن حقيقة إدوارد. وسألت: والدكتور راتبون، هل هو أيضاً من زعماء المنظمة؟

قلب إدوارد شفته باحتقار وأجاب: إن راتبون يطيع ولا يأمر. هل تعلمين ماذا فعل هذا الأستاذ العظيم؟ لقد ظل طوال سنوات عديدة يختلس لنفسه ثلاثة أرباع الاشتراكات والمعونات التي ترسل للمعهد من شتى أنحاء العالم. إنه محتال بارع ولكنه أصبح في قبضة يدنا وفي استطاعتنا أن نفضحه في أية لحظة وهو يعلم ذلك جيداً.

تخيلت فكتوريا الدكتور راتبون بجبهته العريضة وشعره الأبيض، وقالت لنفسها إنه ربما كان محتالاً ولكنه إنسان جدير بالشفقة. نهض إدوارد وهو يقول: آن لنا الآن أن نرحل لكي نعد للخطوة التالية.

وكان ذلك هو ما تتوق إليه فكتوريا. كانت تتوق للعودة إلى بغداد في أقرب وقت لأن الخطر سيكون أقل هناك، فقالت تحدث إدوارد: لقد قلت منذ لحظة إن السيد داكن يعرف مكان هيلين شيل، إن في استطاعتي أن أحمله على الكلام والإفضاء عنها.

- لا أمل في ذلك، ثم إنك لن تقابلي داكن.

فأحست فكتوريا كأن قلبها قد كف عن الحركة ووجدت من الضروري أن تكذب، وبجرأة قالت: لكني كنت على موعد معه هذا المساء فإذا لم أذهب إليه فقد يرتاب في الأمر.

- ذلك لا أهمية له في الوقت الحاضر، لقد أعددنا مخططاتنا ولا ضرورة لبقائك في بغداد.

- لكن أمتعتي كلها في فندق تيو.

كانت تفكر في كوفية كارمايكل، ولكن إدوارد قال: لن تكوني بحاجة إلى أمتعتك في الوقت الحاضر، لقد أعددت لك زياً خاصاً. هلمي بنا.

أدركت فكتوريا أنه كان من الغباء أن تتصور أن إدوارد سيسمح لها بفرصة للاتصال بداكن بعد أن علمت من أمره ما علمت. وانطلقت بهما السيارة في الطريق إلى بغداد، وساد السكون بينهما فترة طويلة إلى أن غمغم قائلاً وكأنه يحدث نفسه: لافارج! ليتني أعلم لماذا ذكر كارمايكل هذا الاسم.

وسرعان ما تفتق ذهن فكتوريا عن كذبة جديدة فصاحت:

آه، نسيت أن أقول لك. إن رجلاً يدعى لافارج قد زار حفائر التل الأسود منذ بضعة أيام.

فصاح إدوارد وقد اختلت عجلة القيادة في يده: ماذا قلت؟! متى حدث ذلك؟

تظاهرت فكتوريا بالتفكير وأجابت بعد لحظة: منذ ثمانية أيام، وقد قال إنه يبحث عن الآثار في سوريا مع بعثة بارو.

- هل زار الحفائر وأنتِ هناك رجلان يدعى أحدهما أندريو والآخر جوفيه؟

- نعم، وأذكر أن أحدهما قد أصيب بألم في معدته.

- لقد كانا من أتباعنا.

- وهل أرسلتهما للبحث عني؟

- كلا، فإنني لم أكن أعرف مكانك. ولكن حدث أن ريتشارد بيكر كان في البصرة في نفس الوقت مع كارمايكل فخطر لنا أن كارمايكل ربما قد أودع لديه بعض الوثائق التي تهمنا.

- آه، هذا يفسر شكوى بيكر من أن بعضهم قد عبث بأمتعته.

- وهل جاء لافارج قبل الرجلين أم بعدهما؟

فتظاهرت بالتفكير وأجابت: قبلهما بنحو أربع وعشرين ساعة.

- وماذا فعل؟

- تفقد الحفائر مع الدكتور بونسفوت جونز ثم رافق بيكر إلى المنزل لزيارة مخزن الآثار.

- وهل دار حديث بين لافارج وبيكر؟

- لا أعرف، فقد كنت في قاعة التصوير.

- ليتني أعلم من يكون لافارج هذا! هل تستطيعين وصفه؟

- إنه طويل القامة نحيف الجسم أسود الشعر وشاحب اللون.

تنهد إدوارد ولزم الصمت. وأخيراً أوقف إدوارد السيارة أمام فيلا في الحي الأوروبي خارج بغداد ودق جرس الباب ففتحته امرأة قصيرة القامة شاحبة الوجه. تبادل إدوارد مع المرأة بعض العبارات باللغة الفرنسية فذهبت المرأة بفكتوريا إلى إحدى غرف النوم، وبعد نحو نصف ساعة خرجت المرأتان من الغرفة وهما ترتديان ثياب الراهبات وفي يد كل منهما مسبحة. نظر إدوارد إلى فكتوريا وصاح وهو يبتسم: إنك أجمل راهبة رأيتها في حياتي، إنما ينبغي أن تنكسي رأسك وخاصة أمام الرجال. ثم رافق المرأتين إلى سيارة كانت تنتظر بالباب وقال يحدث فكتوريا: كل شيء الآن يتوقف عليك يا فكتوريا، فافعلي كل ما يُطلب إليك.

- ألا تأتي معنا؟

- كلا، ولكننا سنلتقي فيما بعد. ثم أدنى رأسه منها وقال بصوت عذب: إنني أعتمد عليك أيتها الحبيبة فهذا دور لا يستطيع القيام به سواك. إن أوراقك كاملة ولن تصادفك متاعب عند الحدود، وبهذه المناسبة أنتِ الآن الأخت ماري دايزانج

وهذه الأخت تيريز، وهي ستهتم بكل شيء وعليك بطاعتها.

قال ذلك ثم أومأ إلى سائق السيارة، فأدار محركها وما هي إلا لحظة حتى كانت تطوي الأرض طياً.

فكرت فكتوريا في أنها ربما تستطيع الاستغاثة في شوارع بغداد أو عند الحدود، ولكنها ما كادت ترى المسدس الذي وضعته زميلتها في كم ثوبها حتى أقلعت عن التفكير في الاستغاثة.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

هبطت الطائرة الضخمة بسلام وغادرها ركابها، وكان بينهم أربعة أشخاص يقصدون إلى بغداد ويتعين عليهم أن يستقلوا طائرة أخرى بعد عرض جوازاتهم على الموظف المسؤول. أحد هؤلاء الأربعة رجل عربي بدين يبدو أنه تاجر عراقي والثاني طبيب إنجليزي شاب وسيدتان. تقدمت إحدى السيدتين من الموظف المختص فتناول جواز سفرهما وقال وهو يتصفحه: السيدة بونسفوت جونز؟ إنجليزية؟ هل ستلحقين بزوجك؟ حسناً، ما عنوانك في بغداد؟ شكراً. كم معك من النقود؟

وتقدمت الثانية، وكانت في مقتبل العمر شقراء نحيفة، فتناول الموظف جواز سفرها وقال وهو يتصفحه: آنسة جريتا هاردن؟ دانماركية قادمة من لندن؟ ما عنوانك في بغداد؟ شكراً، كم معك من نقود؟

وقيل للمسافرين الأربعة إن الطائرة ستقلع في المساء وإن هناك سيارة ستقلهم إلى الفندق العباسي حيث يتناولون طعام الغداء ويلتمسون بعض الراحة.

* * *

في الفندق العباسي تمددت جريتا هاردن في فراشها، وكانت بسبيل تصفح المجلات حين سمعت طرقاً على الباب، ففتحته ووجدت أمامها مضيفة تضع على صدرها شارة شركة الطيران فقالت المضيفة: يؤسفني أن أزعجك يا آنسة هاردن، ولكن يبدو أن هناك خطأ في تذكرة سفرك. إن الأمر بسيط على كل حال فهلا تفضلت معي إلى مكتب الشركة في الفندق؟ إنه في آخر الدهليز.

لم تكد جريتا تدخل غرفة على بابها لوحة تحمل كلمة «مكتب» (وقد اختفت هذه اللوحة في اللحظة التالية) حتى وُضعت على فمها كمامة وأُلقي على رأسها كيس من القماش الأسود. وأمسك بها رجلان ليمنعاها عن الحركة، وتقدم ثالث يبدو أنه طبيب فكشف عن ذراعها وأغمد فيه إبرة، وبعد ثلاثين ثانية غابت الفتاة عن وعيها تماماً وقال الطبيب: لن تفيق قبل ست ساعات. ثم فتح باباً وأطل منه وقال: تعاليا، فدخلت امرأتان ترتديان ثياب الراهبات وانصرف الرجال الثلاثة.

على الفور تبادلت أصغر الراهبتين ثيابها مع جريتا هاردن، وأقبلت الراهبة الثانية فقصت شعر زميلتها على نحو ما تفعل هيلين بشعرها، واستعانت في ذلك بصورة فوتوغرافية كانت معها. وما أن فرغت من ذلك حتى دق الباب ودخل الرجال الثلاثة وعلى وجههم دلائل الارتياح، وقال الطبيب: ليس ثمة شك في أن جريتا هي هيلين شيل، فقد وجدنا أوراقها مخبأة في حقيبتها وسط حزمة من المجلات.

ثم انحنى باحترام أمام فكتوريا وقال: والآن يا سيدة

هاردن، هل تشرفينني بتناول طعام الغداء معي؟

تبعته فكتوريا، ولم يكن في بهو الفندق سوى سيدة تتحدث إلى موظف الاستقبال وكانت تقول له: كلا، إن صيغة البرقية لا غبار عليها، "سأكون في فندق تيو، ألف قبلة" ولكن التوقيع خطأ، فالاسم هو: بونسفوت جونز... بونسفوت.

نظرت فكتوريا إلى السيدة من ركن عينها. إذن فهذه هي زوجة الدكتور بونسفوت جونز؟ ليتها تستطيع أن تعهد إليها برسالة لريتشارد بيكر! ورأت فكتوريا زوجة الدكتور مرة أخرى في قاعة الطعام ومرة ثالثة في الطائرة التي أقلتها إلى بغداد، ولكن لم تسنح لها قط فرصة الاتصال بها.

* * *

قال بيكر: الحق أنني قلق على هذه الصغيرة.

فقال الدكتور بونسفوت جونز وهو شارد الذهن: أية صغيرة؟

- فكتوريا.

قطب الدكتور ما بين حاجبيه وقال باهتمام: هذا صحيح، الواقع أنك عدت أمس بدونها.

- لم يكن في نيتها العودة على كل حال لأنها ليست فكتوريا سافيل.

- آه، هذا عجيب! ولكن ألم تقل لي إن اسمها فكتوريا؟

- إن اسمها فكتوريا ولكنها لم تعرف قط الدكتور

إيمرسون ولم تدرس في أي يوم تاريخ الأجناس البشرية، كان هناك سوء تفاهم.

– هذا أمر يؤسف له. الواقع أن شرود ذهني أصبح لا يحتمل. أصبحت لا أذكر ما يقال أمامي وأفقد الرسائل التي ترد إليّ ومن هنا ينشأ سوء التفاهم.

استطرد بيكر مسترسلاً مع تأملاته: لقد قيل لي إنها خرجت مع شاب في سيارة ولم يرها أحد بعد ذلك وحقائبها لا تزال في الفندق، ولم تكلف فكتوريا نفسها عناء فتحها خاصة وأنها قضت عندنا عدة أيام وكانت في أشد الحاجة إلى استبدال ثيابها، يضاف إلى كل ذلك أنني كنت على موعد معها لتناول الغداء. الحق أنني لا أكاد أفهم... كل ما أرجوه ألا يكون قد أصابها سوء.

– يخيل إليّ أنك تزعج نفسك بلا مبرر.

– لقد اختطفوها مرة ومن المحتمل أن يكونوا قد اختطفوها مرة أخرى.

– هذا أمر بعيد الاحتمال يا بني، فالأمن والهدوء يسودان البلاد.

– ليتني فقط أذكر اسم ذلك الرجل الذي يعمل في شركة البترول. اسمه ديكون؟ داكن؟ شيء من هذا القبيل. وصمت لحظة ثم تابع قائلاً: هل يضايقك يا دكتور أن أذهب إلى بغداد غداً؟

– غداً؟ ولكنك كنت هناك أمس.

- ولكني في أشد حالات القلق.

- لماذا كتمت الأمر عني يا ريتشارد؟

- أي أمر؟

- لم أكن أعلم أنك مهتم بأمر الفتاة إلى هذا الحد. هذه هي المتاعب التي تنشأ عن اشتراك النساء في أعمال البعثة، خاصة إذا كان كنّ على شيء من الجمال. هذه أول مرة أراك فيها تهتم بامرأة.

فاحمرّ وجه بيكر وقال: إنني لم أقع في حبها ولكني قلق عليها ويجب أن أذهب إلى بغداد.

- اذهب إذن، وحبذا لو انتهزت الفرصة وأحضرت معك الفؤوس التي نسيها السائق أمس.

* * *

رحل بيكر عند الفجر ووصل إلى بغداد في الساعة الثامنة صباحاً فقصد تواً إلى فندق تيو وسأل عن فكتوريا وعلم أنها لم تعد. قال له ماركوس: هذا غريب حقاً، لقد وعدتني بأن تتناول العشاء معي فأعددت لها مأدبة لا مثيل لها.

- هل أبلغت الشرطة؟

- كلا، إن ذلك قد يضايقها، ومن المؤكد أن يضايقني كذلك.

لم يجد بيكر صعوبة في معرفة عنوان داكن، فذهب إلى

مكتبه ووجد أنه كان على صواب حين عرفه من مجرد وصف فكتوريا له. سأله عما إذا كان قد رأى فكتوريا فأجاب: لقد جاءت لمقابلتي أمس الأول.

- هل تستطيع أن تدلني على عنوانها حالياً؟

- كل ما أعلمه أنها تقيم في فندق تيو.

- إن حقائبها هناك ولكنها اختفت.

قطب داكن حاجبيه فقال بيكر: لقد عملت معنا بضعة أيام في حفائر التل الأسود.

- فهمت، ولكن لسوء الحظ ليس لدي معلومات عنها. إن لها أصدقاء في بغداد ولكني لا أعرفهم.

- ألا يحتمل أن تكون في «غصن الزيتون»؟

- لا أظن ذلك. لكن في استطاعتك أن تسأل.

فنهض بيكر وهو يقول: على كل حال لن أغادر بغداد قبل أن أجدها.

ورمق داكن بنظرة تنم عن السخط وانصرف وعاد أدراجه إلى فندق تيو فوجد ماركوس في الصالة ووجهه يطفح بشراً فانتعشت آماله وهتف: هل عادت؟

- كلا، ولكني علمت بنبأ قدوم السيدة بونسفوت جونز. إنها الآن في المطار رغم أن الدكتور بونسفوت أكد لي أنها لن تحضر قبل أسبوع.

- إنه لا يذكر من التواريخ إلا ما يتصل بالعصور القديمة.

أما من نبأ عن فكتوريا؟

ارتسم الحزن على وجه ماركوس وأجاب: كلا، وهذا أمر مزعج. إنها فتاة ظريفة ومرحة.

فتنهد بيكر وأجاب: أظن أنه يحسن بي أن أنتظر السيدة بونسفوت جونز لأقدم لها تحياتي.

* * *

- أنت؟!

كان صوت فكتوريا يعبر عن كل ما يعتمل في نفسها من حقد وبغض، ذلك أنها ما كادت تدخل الغرفة التي حجزت لها في فندق بابل حتى وجدت كاترين في انتظارها. أجابت كاترين بنفس الحقد: نعم أنا، تمددي هنا فسوف يأتي الطبيب في التو واللحظة.

كانت كاترين ترتدي ثياب الممرضات وكل حركاتها تدل على أنها لا تنوي أن تدع فكتوريا تغيب عن بصرها لحظة واحدة. تمددت فكتوريا على الفراش وهي تقول بصوت خافت: إذا قلت أن إدوارد في قبضة يدي فإنني أعني ما أقول.

فضحكت كاترين وصاحت: إدوارد؟ أيتها الإنجليزية البلهاء، إن إدوارد لا يحب أحداً سواي. ثم انحنت فوق الفراش وهتفت: لقد كرهتك منذ وقع بصري عليك لأول مرة، إنني أبغضك، أبغضك. هل فهمت؟

فقالت فكتوريا لتغيظها: المهم أنه لا غنى له عني، أما أنت

فإنك مجرد ممرضة تستطيع أي فتاة أخرى أن تقوم بدورها. إن كل شيء يتوقف عليّ أنا يا كاترين.

فهزت كاترين كتفيها وأجابت: يجب أن تعلمي أنه لا يوجد إنسان لا يمكن الاستغناء عنه.

- أنا ذلك الإنسان. قولي لهم إنني أريد طعاماً ممتازاً يليق بسكرتيرة مليونير أمريكي.

- حسناً، اضحكي طالما ذلك في استطاعتك.

كانت إجابتها حافلة بالتهديد، ولكن فكتوريا لم تلق إليها بالاً.

* * *

اقترب الكابتن كروسبي من مكتب موظف الاستقبال بفندق بابل وسأله: هل الآنسة جريتا هاردن في غرفتها؟ فأطرق الموظف برأسه وأجاب: نعم يا سيدي، لقد وصلت من إنجلترا في التو واللحظة.

- إنها صديقة أختي، هل لك أن ترسل بطاقتي إليها؟

وأخرج من جيبه بطاقة كتب عليها بضع كلمات ووضعها في غلاف. وبعد فترة عاد الخادم الذي حمل البطاقة وقال: إن الآنسة هاردن لا تستطيع استقبالك يا سيدي، فهي مصابة بمرض في حلقها وتلازم الفراش. إنها تنتظر الطبيب ومعها إحدى الممرضات.

انصرف الكابتن كروسبي وقصد فندق تيو، وهناك بادره ماركوس قائلاً: إن الفندق حافل بالنزلاء بسبب المؤتمر وقد اضطررت إلى التخلص من أحد موظفي الأمم المتحدة لكي أفسح مكاناً للسيدة بونسفوت جونز. إنها غاضبة لأنها لم تجد زوجها في انتظارها، الواقع أن الدكتور رجل ظريف ولكنه كثير النسيان.

- إن انطباعي عن بغداد الليلة أنها ستعيش فترة جنون.

- هذا صحيح، ويبدو أنهم اكتشفوا مؤامرة ضد بعض أعضاء المؤتمر، وقد ألقوا القبض على خمسة وستين طالباً.

* * *

دق جرس الهاتف فتناول سكرتير السفارة السماعة وقال: هنا السفارة الأمريكية.

- هنا فندق بابل، الآنسة هيلين شيل موجودة بالفندق.

- الآنسة هيلين شيل؟ هل أستطيع التحدث إليها؟

- إنها مريضة في فراشها وأنا الدكتور سمولبروك طبيبها. تقول الآنسة إن معها وثائق هامة تريد تسليمها إلى مسؤول في السفارة، هل ستوفد إليها رسولاً؟ الآن؟ حسناً، إنها في الانتظار، شكراً.

* * *

ارتدت فكتوريا ثوباً أنيقاً ونظرت في المرآة فوجدت

شعرها الأسود مقبولاً، وفجأة نظرت خلفها فرأت كاترين تتأملها بعينين تتألقان سروراً فأحست بالدهشة والقلق وسألتها: ما سبب اغتباطك؟

- ستعلمين في التو واللحظة.

كان صوتها مليئاً بالاحتقار واستطردت قائلة: أما زلت تعتقدين أن كل شيء يتوقف عليك؟ يا لك من حمقاء!

فانقضت عليها فكتوريا ونشبت أظافرها في كتفيها وهي تصيح: أوضحي أيتها الشقية، ماذا تعنين؟

- دعيني، إنك تؤلمينني.

- تكلمي.

في تلك اللحظة دق الباب ثلاث مرات بطرقة خاصة، فقالت كاترين وعيناها تتألقان: ستعلمين الآن كل شيء.

فتح الباب ودخل رجل طويل القامة يرتدي ثياب الشرطة الدولية، وأغلق الرجل الباب ووضع مفتاحه في جيبه وقال يحدث كاترين: هلمي بنا، يجب أن نعمل بسرعة.

فجلست كاترين على أحد المقاعد وشد الرجل وثاقها جيداً وكمم فمها، ثم وقف منها على بعد خطوتين وتأملها وقال: هذا رائع. ثم تحول إلى فكتوريا فرأت والرعب يملأ قلبها أن في يده مطرقة، وبأسرع من لمح البصر فهمت كل شيء. فهمت أنه لم تكن هناك أية نية لجعلها تقوم بدور هيلين في المؤتمر. إن قيامها بهذا الدور كان ينطوي على خطورة شديدة لأن الكثيرين

في بغداد يعرفونها شخصياً بصفتها فكتوريا جونز، لذلك تفتقت أذهانهم عن فكرة أفضل هي أن تقتل هيلين شيل في آخر لحظة ويشوه وجهها بحيث لا يتعرف عليها أحد، وهكذا تكتشف جثة هيلين شيل في غرفتها وتكتشف معها الوثائق التي جاءت بها، وهي بطبيعة الحال وثائق زائفة اصطنعها أعوان إدوارد.

* * *

تقدم منها الرجل وعلى شفتيه ابتسامة وحشية فاندفعت نحو النافذة وهي تصرخ، وسمعت فكتوريا صوت زجاج يتحطم وأحست بضربة تزلزل كيانها وفقدت الوعي.

* * *

تناول داكن السماعة وقال: إنني مصغٍ.

- انتهت العملية بنجاح تام.

- حسناً.

- اعتقلنا الطبيب وكاترين سركيس، وفر الرجل الآخر من النافذة ولكنه اعتقل عند باب الفندق.

- هل جرحت الفتاة؟

- كلا، أصيبت فقط بضربة وأغمي عليها.

- هل ثمة أنباء عن «هـ ش» الحقيقية؟

- كلا.

وضع داكن السماعة. لقد نجت فكتوريا وهذا أمر له أهميته، أما هيلين شيل فلا بد أنها ماتت. لقد أصرت على أن يدَعوها وشأنها ووعدت بأن تكون في بغداد يوم ١٩، واليوم هو التاسع عشر ولم تظهر. إن اختفاءها سوف يضعف قضيته لأنه كان يعتمد عليها كل الاعتماد في إماطة اللثام عن ركن هام من أركان المؤامرة الرهيبة التي تستهدف إشعال حرب بين القوتين الأعظم لا تبقي ولا تذر.

ودخل الخادم وقدم إليه ورقة عليها اسم ريتشارد بيكر والسيدة بونسفوت جونز. قرأ داكن الاسمين وقال في ضيق: قل لهما إنني آسف ولا أستطيع استقبالهما. فانصرف الخادم وعاد بعد لحظة وبيده رسالة، وفض داكن الغلاف فوجد قصاصة كتبت عليها هذه الكلمات: أود أن أحدثك عن كارمايكل.

قال: دعهما يدخلان.

ودخل الزائران وجلسا، وتحدث بيكر في الموضوع مباشرة فقال: سأتكلم بإيجاز اختصاراً للوقت. لقد اتفق أنني كنت زميلاً في الدراسة لشخص يدعى هنري كارمايكل، ثم افترقنا ومضت عدة أعوام لم نلتق خلالها، ورأيته أخيراً بدار القنصلية البريطانية في البصرة وكان متنكراً في زي عربي، فعرفني واستطاع التفاهم معي، فهل يهمك هذا الموضوع؟

- إلى أقصى حد.

- لقد فهمت منه أنه في خطر، وبعد بضع دقائق حاول

رجل إطلاق الرصاص عليه ولكني جردته من مسدسه، وتمكن كارمايكل من الفرار، ولكني لاحظت فيما بعد أنه قد دسّ في جيبي ورقة يبدو من مظهرها أنه لا أهمية لها، ولكني قررت أن أتصرف كما لو كانت لهذه الورقة كل الأهمية بالنسبة إلى كارمايكل فاحتفظت بها على أمل أن يعود ذات يوم للمطالبة بها. ثم علمت من فكتوريا جونز منذ أيام أن كارمايكل قد لقي مصرعه، وفهمت من ملابسات أخرى أنه إذا كان هناك إنسان من حقه أن يحصل على هذه الورقة فذلك الإنسان هو أنت. ها هي الورقة.

قال ذلك ووضع الوثيقة على مكتب داكن واستطرد قائلاً: هل لها أية أهمية؟

– إنها أهم مما تتصور يا بيكر. أنا لا أعرف كيف أشكرك، وقد كنت أود أن يطول هذا اللقاء لولا أن لديّ من المهام ما يمنعني من أن أضيع دقيقة واحدة. وشد على يد بيكر وقال وهو يصافح السيدة بونسفوت جونز: لا شك أنك ستلحقين بزوجك العظيم في حفائر التل الأسود؟ أتمنى لبعثته كل نجاح وتوفيق.

فقال بيكر: من حسن الحظ أن الدكتور بونسفوت جونز لم يحضر معي إلى بغداد اليوم. إنه عادة لا يلاحظ شيئاً مما يدور حوله، ولكن من المؤكد أنه كان سيلاحظ وجود بعض الفوارق والاختلافات بين زوجته وشقيقتها.

فدُهش داكن ونظر إلى السيدة بونسفوت جونز التي قالت بصوت رقيق: إن أختي إيلزا في إنجلترا، وقد صبغت

شعري واستخدمت جواز سفرها. إن السيدة بونسفوت جونز قبل زواجها كانت تدعى إيلزا شيل، أما أنا يا سيد داكن فإنني هيلين شيل!

* * *

الفصل الرابع عشر

لم تشهد شوارع بغداد من رجال الشرطة مثل العدد الذي شهدته يوم افتتاح المؤتمر. وفي أحد قطاعات قصر نائب الملك اجتمعت إحدى لجان المؤتمر لاستعراض الأخطار التي تهدد السلام العالمي. افتتح الجلسة الدكتور ألان بريك، مدير معهد الذرة في هارديل، فألقى كلمة موجزة مؤيدة بالوثائق تحدث فيها عن عينات التربة التي أحضرها السير روبرت كروفتون لي من الصين وتركستان والعراق وأثبت التحليل أنها غنية بمعدن اليورانيوم. ثم تكلم داكن فروى قصة كارمايكل، الرجل الذي لم يسخر من الشائعات القائلة بوجود مصانع هائلة في مناطق مهجورة بعيدة عن الأخطار والعمران وخاطر بحياته للتحقق من صحة هذه الشائعات، ثم قال: لقد ذهب كارمايكل وذهب السير روبرت كروفتون لي، ولكن بقي شخص يستطيع أن يميط اللثام عن حقائق مذهلة، فأرجو أن تصغوا إليه. إنها الآنسة هيلين شيل.

وبهدوء ورباطة جأش تكلمت هيلين شيل كما كانت تتكلم في مكتب موجنتال، فذكرت أسماء وأرقاماً، وأوضحت كيف استطاعت إحدى المنظمات أن تستنزف مبالغ جسيمة من شتى أنحاء العالم لتمويل مشروعاتها التي تهدف إلى بذر الشقاق

بين كتلتين من الدول وتأليب كل منهما على الأخرى لإشعال نار حرب عالمية مدمرة. ثم عقّب داكن على حديثها فقال إن كارمايكل قد جاء بالأدلة ولكنه لم يحتفظ بها معه خوفاً من أن تقع في أيدي أعداء كان يعلم أنهم يترصدون له في كل ركن وإنما تركها وديعة لدى واحد من أصدقائه هو الشيخ حسن الزيارة، وهو من كبار علماء المسلمين في كربلاء.

ونهض الشيخ الوقور، حسن الزيارة، فقال إنه عرف كارمايكل منذ كان طفلاً وعلّمه قواعد اللغة وشرح له الكثير من قصائد الشعراء القدامى والمحدثين. ثم حدث منذ بضعة أسابيع أن جاءه رجلان يعرضان صوراً في صندوق وقدّما إليه حزمة صغيرة قالا إنها من كارمايكل وإنه يطلب أن يكتم أمرها ويحتفظ بها فلا يسلمها إلا له نفسه أو لمن يقوم بترديد كلمات معينة. ثم قال الشيخ: فإن كنتَ أنت الشخص المقصود فتكلم يا بني.

قال داكين: أيها السيد، إن الشاعر العربي المتنبي، الذي عاش قبل ألف سنة، كتب قصيدة للأمير سيف الدولة في حلب. وقد وردت في القصيدة الكلمات التالية: "زِدْ، هُشَّ، بُشَّ، سُرَّ، صِلِ".

فابتسم الشيخ وقال: هو ذاك، إليك الحزمة.

فقال داكن وهو يتناول الحزمة: إن في هذه الحزمة مجموعة من الأفلام سجل فيها كارمايكل صور المصانع التي شاهدها، والرأي عندي أن يقدَّم ما دار في هذه الجلسة وصور من وثائق كارمايكل وهيلين شيل إلى رؤساء الوفود التي تشترك في المؤتمر.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

قالت فكتوريا: ليس هناك ما يؤلمني سوى مصرع الفتاة الدنماركية المسكينة التي لقيت حتفها في دمشق.

فأجاب داكن وهو يبتسم: هل تعنين الآنسة جريتا غاردن؟ إنها تتمتع بصحة جيدة، ولم يكن هناك خطر على حياتها طوال فترة انعقاد المؤتمر. لقد نقلناها إلى المستشفى واعتقلنا المرأة الفرنسية التي كانت تتنكر في زي راهبة، ولعل من تحصيل الحاصل أن أقول لك إن جريتا هاردن تعمل معنا.

- أحقاً تقول؟

- نعم. لقد رأينا بعد اختفاء هيلين شيل أن نضلل خصومنا فحجزنا مكاناً في الطائرة لجريتا هاردن وأحطناها بالغموض وزودناها بأوراق مزيفة لإيهام الخصوم بأنها هيلين شيل، ونجحت الحيلة.

- هل صحيح أنني كنت تحت حراسة أعوانك طوال الوقت؟

- نعم، والواقع أننا قد ارتبنا في نشاط إدوارد قبل أن يغادر لندن، وحين رويت لي قصتك عقب مصرع كارمايكل لم أجد

وسيلة للمحافظة على حياتك أفضل من إلحاقك بالعمل معي، وكان رأيي في ذلك أن إدوارد متى عرف صلتك بي فإنه سوف يبقي عليك ليضللنا بالمعلومات الزائفة التي يفضي بها إليك وهو يعلم أنك ستنقلينها إلينا. لكن موقفه حيالك تغير تماماً عندما وجد أنك قد اكتشفت أن أحد أعوانه انتحل شخصية السير روبرت فقرر تصفيتك.

- لقد شعرت برعدة كلما فكرت في المآزق التي تورطت فيها.

فابتسم داكن وقال: في استطاعتك الآن أن تطمئني، فقد اعتقلنا إدوارد وأعوانه جميعاً.

- والدكتور راتبون؟

- لقد انصاع لإدوارد خوفاً من الفضيحة، ولكنه اعترف بالاختلاس وعبّر عن أسفه واستعداده للتكفير عن أخطائه.

- أعلم أنه ليس من حقي أن أسأل، ولكن أريد أن أعرف: هل أوفدت أحداً لإحضار كوفية كارمايكل؟

- كانت الكوفية متممة للوثيقة التي دسها في جيب ريتشارد بيكر، ففيها وجدنا اسم الشيخ حسن الزيارة وفي الوثيقة وجدنا كلمة السر أو بيت الشعر الذي بمقتضاه أعطانا الشيخ حزمة الأفلام.

- أليس من المصادفات العجيبة أن يكون نصف السر معي ونصفه الآخر مع ريتشارد بيكر؟

فابتسم داكن وقال: بهذه المناسبة، هل لي أن أسألك ماذا في نيتك أن تفعلي الآن؟

- سأبحث عن عمل وبسرعة.

- لا تجهدي نفسك في البحث، يخيل لي أن لك عملاً في انتظارك.

وتركها ومضى وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، وما هي إلا لحظة حتى أقبل بيكر وجلس في المقعد الذي تركه داكن. قال: أصغي إليّ يا فكتوريا، لقد علمنا أن فيرونيكا سافيل قد أصيبت بمرض يمنعها من القدوم، فهل تعودين للعمل معنا؟

- أتريدونني حقاً؟

- سنكون سعداء إذا وافقت.

- إنني أوافق بكل سرور.

- إذن لم يبق إلا أن تعدّي حقائبك. هلمي بنا.

* * *

قال الدكتور بونسفوت حالما رآها: أهذه أنت يا فيرونيكا؟ لقد أصيب ريتشارد بخبل بعد رحيلك، ولكن كل شيء قد انتهى الآن وإنني لأرجو لكما السعادة والتوفيق.

فنظرت فكتوريا إلى ريتشارد ونظر ريتشارد إليها، واحمرّ وجهاهما.

* * *

(تمت)